العيفاوي ياسين

لأن إرثك انتظار

رواية

يوتوبيا للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
إصدارات يوتوبيا 2021
ردمك:

الكاتب: العيفاوي ياسين
عنوان الكتاب: لأن إرثك انتظار
الإخراج الفني: أحمد الشافعي ملكي
المدير العام: فتيحة دحام
الإشراف العام: عبد القادر بعطوش

الناشر: دار يوتوبيا للنشر والتوزيع
إيميل: yotoubia@gmail.com
هاتف: 0657142322/046300433
يوتوبيا للنشر والتوزيع - عين الحديد- تيارت - الجزائر

جميع الحقوق محفوظة © لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيا أو إلكترونيا أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر.
تستثنى منه الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

ملاحظة :

الرواية خياليّة من إبداع مخيّلة الكاتب ولا علاقة لها بأرض الواقع.

***

إهداء

- إلى أولئك الذين يحاولون النسيان لكنه يخذلهم ككل مرة.
- إلى تلك الرسائل التي تُكتب بحق أحدهم ولا ترسل.
- إلى لورين.

***

لورين... أتذكر جيدا اللقاء الأخير بيننا والذي أخبرتك فيه أننا سنلتقي يوما ما، لم أكن أدري أين ومتى؟ ربما على الطريق صدفة، أو على الرصيف في ليلة ماطرة دون سابق ميعاد، أو ربما في النصوص القديمة، في إحدى الحروب الخيالية، أو حتى خارج الأرض. كنت مؤمنا حقا أننا سنلتقي...

أتذكر أيضا أنني أخبرتك ذات ليلة من ليالي ديسمبر الماطرة أنني سأكتب لأجلك رواية جميلة، لا أعلم إن كانت جميلة أم لا، كما لا أعلم إن كنت تقرئين الآن أم لا. كلُّ ما في الأمر أننا سنلتقي اليوم يا لورين ولكن ليس ككل لقاء، سنلتقي اليوم على شكل حروف وكلمات فرّقها شوق وحنين وأرق، وجمعتنا سطور دافئة على صدرهاته الأوراق..

«لأن إرثك انتظار» رواية تمخضت بعد آهات الحنين والذكريات... كتبتُها وأُهديها لك كمهر فراقنا. أتمنى هذه المرة يا لورين أن لا تكوني عنيدة وأن تقرئي حروفي بتمعن فكلماتي الآن تداعب روحك الغائبة، كلماتي الآن تداعب عينيك.

***

الفصل الأول: البدايات الجميلة

"بين زحام المشاعر ولهفة البداية"

إيهاب يتصل بي، يقول: «صديقي لست أدري ماذا أقول لك، لكن لورين تودّ محادثتك، لورين تود لقاءك!»

«أحسست بذلك الدفء يتسرب إلى قلبي. نهضت مسرعا تحت خطى اللاشعور. نظرت في المرآة، احتضنت جسدا بدا سعيدا للغاية، تحسست بعينيّ وأنا أنظر المرآة إلى نور ينبعث من شرايين القلب. أحسست حينها أن جزءا مني ينمو داخلي، لم أستوعب ذلك الشعور المليء بالاندهاش والحب في الوقت نفسه».

لم تكن هذه الحركات مجرد حدث عابر، لقد كانت حدثا لا إراديا ناتجا من سلطة عليا تقودها ميتافيزيقيا الحب... كان حدثا قدّمت فيه قلبا فتيا كجندي في ساحة حب لا يعلم عنها شيئا، دون دراية بالعواقب. فحينها أحسست أن الأمل عاد ليرمم جدران الروح الذي هشّته الأيام. ثم أدركت لحظتها أن الغربة لم تكن يوما في البُعد عن الوطن بل في البُعد عن الروح... كنت أبحث عن روحي، عن نفسي... حقا لم أجدها. لست أدري كيف خرجت عن نطاق سيطرتي، لست أدري كيف طارت مع كلمات إيهاب تلك.

كانت حينها الساعة الصفر من ليلة باردة...

الساعة الصفر تلك التي ينام فيها العقل البشري بعد يوم كامل من العمل، فيمنح رخصة القيادة لمضغة صغيرة فتقودنا أشباه مشاعر تحت سلطة أب طفولي اسمه القلب.

إيهاب كان صديقي المفضل، كان المعنى الحقيقيَّ للصداقة، كان أول علاقة إنسانية أستطيع تكوينها، وبشكل أعمق كان شيئا ناجحا في حياتي.

كان يربت الحزن من على كتفي، في أشد اللحظات ارتجافا كان يطمئنني، يُهدي إليّ الابتسامة رغم كل تلك الفوضى التي يعانيها هو الآخر... كان سدا منيعا لي أمام كل آلام العالم.

إيهاب كان يقول لي: «ضع حزنك على كتفي، ارتخِ، خذ نفسا عميقا واطمئن، إني أجيد حمل حزنين!»

«ثمة أشخاص بمثابة أرواح ثانية لنا، نكتشف معهم أن الصداقة ليست مجرد كلمة عابرة بل هي مواقف وتضحيات... الأصدقاء الحقيقيّون هم أولئك الذين نستطيع من خلالهم ملامسة القوى الكامنة الموجودة بداخلنا، نمتلك من خلالهم نفسا ثانية بِرئة أخرى نستطيع من خلالهم الوصول لأعمق النقاط إضاءة في أرواحنا.

لمثل هؤلاء الأصدقاء سلام وثناء ودعاء وحمد لله على النعمة».

أما عن لورين فدعني أخبرك عنها:

عزيزي القارئ:

ستصادف كثيرا في هذه الرواية البائسة شخصية تدعى لورين

عند تقليبك لصفحات هاته الرواية ستجد الكثير من الكلمات والحروف والأسطر، لكن عينيك ستطيران بك مباشرة صوب كلمة لورين.

ستتساءل عن ماهية هاته الشخصية. سيطرح عليك عقلك السؤال التالي: من هي لورين؟ من تكون لورين؟

سيعتريك نوع من الفضول لمعرفة شخصية لورين المسيطرة على أحداث الرواية. أ ليس كذلك؟

حسنا أنت الآن قد وقعت في فخ لورين، وقعت في فخ لورين مثلي تماما...

قبل أن أخبرك عنها، دعني أعلمك شيئا تجهله:

قبل عامين، عامين بالتمام دعنا من أمر ضبط التاريخ فأنا لم أكن أعير تواريخي معها ذلك الاهتمام البالغ، لكني متأكد أنها في شهر ديسمبر من العام قبل الماضي وفي الساعة التاسعة مساء، دعنا من أمر ضبط الوقت فأنا لم أعد أتذكر ذلك، أنا لا أتذكر سوى أن لورين حدث من الماضي... لورين حدث من الماضي لم يبقَ منها في ذاكرتي سوى التواريخ التي جمعتنا، سوى الأماكن التي التقينا فيها؛ ذلك الكرسي، الشارع، الطريق....

دعنا من تضخيم الأمور فأنا نسيتها.... نسيتها

حسنا دعني الآن أخبرك من تكون لورين:

طفلة صغيرة، مراهقة مجنونة، عجوز كبيرة...

ابنة الحب، فتاة الكره... أستاذة الاهتمام، دكتورة التجاهل... عازفة الصمت، موسيقار الكلام... زهرة السلام، بدر في ليلة التمام...

فتاة جميلة على هيئة وردة، بداخلها نجمات رصَّعت سماء ليلي، في عينيها أرى إشراق القمر، ابتسامة فلسطينية تتلاعب بثغر مقدسي، نيرة كما لو أنها باقات فجر، رقيقة، جميلة كما لو أنها فراشة يوسفية الجمال، وجه ملائكي، صعبة الفهم، مزاجية، سهلة، مريحة في التعامل، مزيج بين الرقة المفرطة والقوة حدّ الصلابة..

أغازل فتاتي فأجدها تتلعثم وتخجل ويحمر خدَّاها، تلك عادتها.

كنت أخبرها أنها جميلة، جميلة للحد الذي يجعلني أتأمل جمالها في لوحة من ألواح دافنشي.

الشيء الملفت في لورين أنها كانت متميزة.

لورين لم تكن مثل باقي البنات... لم تكن تستهويها جلسات الأفلام ولا حلقات المسلسلات، لم تكن لتضع تلك الألوان الصاخبة على وجهها كما لا تهتم لشكلها من الخارج... أنيقة بعفويتها.

«لم تكن لتدفع بعض المال لشراء أشياء تجعلها جميلة، كانت جميلة بفطرتها».

لورين كانت مليئة بالتناقض.

متناقضة؛ كانت تظهر ضعفها على هيئة قوة.

لورين كانت بارعة للحد الذي تظهر فيه احتياجها على هيئة برود تام، فتكون في غنى تام عن عطائك.

كانت إن رأت الظلام تؤمن بأن بزوغ الفجر قادم لا محالة. كانت تسعى خلف أحلامها بكل ما أوتيت من قوة، لكن يبدو أن أحلامها صعبة المنال وذلك ما قرأته جليا في تلك الهالات السوداء البارزة بوضوح تحت عينيها....

يقولون قديما: «الحب يجب أن يبقى أسير السطور، مكان الحب الحقيقي هو أوراق الكتب لا الواقع».

كنت على وعي تام بمحتوى هاته العبارة. كنت المحذِر الأول لأصدقائي من الوقوع فيما يسمى الحب. لم أكن يوما أصدق بأنني سأقع في ما يسمى الحب. لكن لورين كسرت قوانين عقلي وتمردت على كياني الداخلي... كانت الاستثناء.

«نحن الذين إذا تمخضت في قلوبنا نطفة مشاعروأدناها، وأدناها كي لا تفتك بالروح... لكنكِ يا لورين... لستُ أدري كيف أصبحت ابنتها».

لورين لطالما أحببتها، لورين بأفعالها تلك وقعتُ أسير حبها.

تفاصيلها، عصبيتها، عنادها، مزاجيتها، طفوليتها، حكمتها، تناقضها، تميزها، حركات يديها المتوترتين، ارتجاف شفتيها الرائعتين... كنت دائما ما أحاول سرقة نظرة إليها على حين غفلة منها، لكن سرعان ما أجد نفسي تائها في تفاصيلها... لورين دفعتني لا إراديا، لورين بأفعالها جعلتني أقترب منها لست أدرب كيف؟ ولماذا؟ ومتى؟

فقط أدركت أن لورين سرقت شيئا من قلبي، سرقت شيئا مني لا يمكن أن يعود.

«لورين كنتُ أراك طفلة صغيرة بأفعالك تلك، كنت تفعلين أشياء مبهمة، أشياء جعلتك قلبا ينبض بداخلي».

أتذكر في إحد بداياتنا:

في صبيحة يوم خميس... يوم جميل هادئ

استيقظت صباحا على صوت اتصال من لورين... لورين تلك التي اعتادت النهوض متأخرة توقظني اليوم من النوم بعد أن استيقظت باكرا. كيف لا والخميس هو اليوم الذي سيُفتتح فيه أكبر دكان لبيع مستلزمات الأعراس في ولايتنا، وقد اتفقت البارحة معها على الذهاب برفقتها إلى هذا المحل لحضور حفل الافتتاح.

التقينا صباحا في المكان الذي اعتدنا اللقاء فيه، لورين متأنقة جميلة كعادتها...

لم نلبث هناك كثيرا حتى مضينا صوب المحل

ها قد وصلنا...

كان كل شيء هنا جميلا، الرجال رفقة عرائسهم.. سرب من البنات يطفن، المكان مشعلين الشموع والبخور وأنواع العطور.

كان كل شيء يدل على أنه سيكون يوما جميلا برفقة لورين.

أدخل رفقة لورين القاعة.

تبدأ بتفحص الأشياء مثلها مثل باقي البنات كونهنّ يعشقن مثل هاته الأشياء.

تذهب صوب الجزء المخصص للفساتين...

- لورين انظري صوب ذلك الفستان ستكونين جميلة وأنت ترتدينه.

- آه ذلك الفستان بالأحمر؟ يبدو جميلا، ولكن لماذا وقع اختيارك على اللون الأحمر بالضبط؟

- لورين ، تبدين جميلة أكثر باللون الأحمر...

أميرتي الصغيرة كم تصبحين جميلة بذلك الفستان! يليق بك طيف الأحمر يا لورين بشغف عنفوانه المماثل لنبضات قلبك، المماثل لتلك الخدود الحمراء التي تعانق وجها ملائكي الجمال، مشكِّلة لوحة فنية في يد فنان يداعبها بريشته... إنه يضفي جمالا آخر على جمالك المعتاد... تغدين كلؤلؤة، إنه يجمِّل عينيك البنيتين، يضفي تناسقا لا متناهي الإبداع على

شعرك الأسود وأظافرك المطلية بالأحمر..

يليق بك أميرة بفستان أحمر.

تخجل لورين من كلماتي، يحمر خدّاها كعادتها عندما أحادثها هكذا وتبتسم...

ثم ما لبثتُ حتى رفعت رأسي لألمح خاتما وتاجا كانا هناك بجانب الجزء المخصص للفساتين:

- لورين انظري إلى ذاك الخاتم والتاج... سأزينك يوما ما بهما.

سأسكنك نبضات قلبي، سأحتويك في صدري، سأزين حبنا ذات يوم بخاتم وتاج أرجواني وفستان أحمر.

يا لورين ستصبحين ذات يوم ملكي الخاص لن أدع أحدا يقترب منك.

لن أسمح لأحد بأن يقترب منك، ستكونين العالم الخاص بي، سنتزوج ذات ليلة.

سنكون تحت سقف واحد، سنتبادل الضحكات، سنتشارك الأيام، سنتقاسم الأكل معا، سنجلس على مائدة واحدة.

سنرقص سويا على وقع ألحان الحب، سنعزف على بيانو الشوق، سأجعل من دقات قلبك طبول حرب ومن شفتيك القرمزيتين تلك غناء ناي...

يا لورين سأنجب فتاة جميلة مثلك، يوما ما سيُنبت حبنا زهرة تشبهك ستكون جميلة مثلك، ستسرق ابتسامتك تلك، ستكون أنت، ستمتلك نقاء وطيبة قلبك، ملامحها ستكون جميلة مثلك، ستأخذ منكَ لون عينك ولمعتها.

يوما ما سأنجب منك طفلة صغيرة وسأسميها «بلقيس» سأحبها مثلما أحببت أمها... يوما ما ستصبح لدي صغيرة أخرى...

لورين صغيرتي تبتسم وتقول: «لا لن أسمح لبلقيس بأن تأخذ مكانتي في قلبك...

كم أنا محظوظة كوني أحظى بكل هذا الحب من شخص مثلك! يا لسعادتي! لم أكن يوما أتوقع أنني سأحظى بحب كهذا من شخص ما، لكنك كسرت هذا التوقع. لست أدري كيف تعشقني بكل هذا الجنون!»

- يا لورين إنني أحبك! ألا تعلمين معنى أن أحبك؟

أن أحبك يعني أن تندفع روحي صوب روحك، الحب يا صغيرتي اندفاع روح صوب روح، أن تتخذ الروح قلبا آخر موطنا لها... عندما يحتلنا الحب تُنفى أرواحنا صوب وطن آخر يحتويها.

أن نعيش في وطن آخر لا نشعر معه بالاغتراب... ذلك الحب

ألا تعرفين معنى أن ينبض شخص آخر في قلبك؟

يعني أن تعرفيه أكثر من نفسك، أن تحفظيه كأغنيتك المفضلة، أن تشاركيه تفاصيلك الصغيرة.

الحب مناجاة الروح.

أتذكرين يا لورين في إحدى حلقات كونان يومها قال كونان لران:

- اختاري أحد السِّلكيْن يا ران... ولكن إن أخطأتِ سوف نموت معًا.

- ران: كنت أود لو أني أقضي حياتي معك يا سينشي.

- كونان: اختاري سلكاً يا ران..

«مهلا ران السلك الأحمر خدعة لا تقطعيه يا ران»

- ران (بعد أن قطعت السلك): كيف أخرب لوناً أحبه أنا وسينشي؟! ... الأزرق كان اختياري منذ البداية... الأحمر هو لوننا المفضل.

ذاك هو الحب.

تسكت لورين ثم تقول بصوت باهت يخشى خسارتي: لكنني سمعتهم يقولون أن الظروف تنهي الحب يوما ما! ويقولون إن الظروف كالماء؛ تسكب فوق نار الحب فتطفئها!

- لورين انظري إلى كل هذا الحشد، إنهم مثنى مثنى، ألا تعلمين أنهم مخطوبون، أحب بعضهم بعضا يوما ما، لا الظروف فرقتهم ولا الأيام.

الظروف لم ولن تكن يوما سببا للرحيل... الظروف مجرد حجج باطلة.

هناك أسطورة تقول:

إن الشمس والقمر كانا مغرمين ببعضهما، ولم يستطيعا أبدا أن يكونا معا؛ لاختلاف توقيتهما، لكن نتيجة لمناجاة الروح التي بينهما، جاء الخسوف ليجمعهما، يتباعدان عمرا ليلتقيا ساعتين ويعبرا عن حبهما العميق بعناق.

لايجب أن نتحجج بالظروف يا لورين.

لايجب أن نترك الناس دون أسباب واضحة.

لم تكن الظروف يوما سببا لانتهاء الأشياء.

التحجج بالظروف أبشع النهايات.

أدركت لورين مدى تعلقي الشديد بها، وراحت تحضنني بكلماتها المليئة بالحب:

- إني أعلم ذلك يا غيث...

«لورين كانت تناديني "غيث"، كانت تناديني باسم ولدنا الأول، كنت ابنها من رحم الحب »

دام لي قلبك وطنا للحب...

- أحبك يا غيث...

أحب الحياة كونها تمضي بجانبك...

أحب الحياة كونك أنت فيها، أحب هاته الأيام لأنك أنت فيها...

ثم مضينا نكمل مسيرنا داخل المحل المزدحم، أمشي أنا بجانب طفلتي الصغيرة لورين، كنت أراها الوحيدة داخل المحل، لم تبتعد عيناي عن متابعة حركاتها، مشيتها، نظراتها... وأي شيء يتعلق بها.

- لورين لنتفق على أن نبقى أنا وأنت على العهد مهما طال الزمان بنا

أن نشيخ سويا تحت أنغام الحب

لنخبر القدر الذي جمعنا في البداية أن يبقى على عهده حتى النهاية

لنتفق أنه مهما حاولنا الهروب من بعضنا نهرب إلى بعضنا

فلنكسر كل القوانين من أجلنا فقط

ولنخبر الحب بأننا أجمل ثنائي له...

- متفقان يا غيث... فأنا لا يمكن أن أتصور حياة بدونك

الحياة هي أنت
أنا وأنت سنبقى إلى الأبد...

واصلنا المسير بين أزقة الدكان الغاص بالمتسوقين، حتى إذا داهمنا الجوع تقاسمنا طبق البيتزا وبعض أنواع الشكولاتة التي كانت تعشقها لورين وكذا شرب العصير... كم كان يوما رائعا! حينها استكشفنا المكان؛ اخترنا فستان الزفاف بعد أن اتفقنا على أن يكون أحمر اللون، وكذلك الخاتم والتاج الأرجواني. زاحمنا كبار الأشخاص، المتزوجين منهم والمخطوبين، رأينا الحب في أسمى معانيه، نطقت اللغة بأحلى العبارات، كان أحد أفضل الأيام في حياتي على الإطلاق!

«جميلة هي البدايات؛ نجد فيها الحب و الشغف والاهتمام... الجميل في الحب بداياته الخجولة، أجمل شيء هو أول شيء في كل شيء... »

كذلك البدايات... أجمل المراحل التي نمر بها، تفيض فيها القلوب حباً حتي تنضب...

تلك المرحلة نقف فيها على محراب القلوب، نرتوي من ينابيع الروح النقية، يزهر النرجس بداخلنا، تخضب قلوبنا بحناء اللقاء، لا يكفينا عناق السماء، نفعل أشياء غالبا ما تكون غريبة، نحاول من خلالها أن نصل إلى أعالي الكمال في عين من نحب.

كذلك لورين؛ فعلت كل الأشياء لأجعلها تحبني، وبادرت هي أيضا بفعل أشياء مجنونة جسدتها عدة مواقف... تبادلنا الضحكات، والليالي الجميلة، احتسينا السعادة، قطعنا أشواط الحب في أسمى بداياته، تبادلنا الهدايا... في كل عيد

ميلادها كنت أهديها هدية جميلة تليق بها، أقيم من أجلها مهرجانا من السعادة، كذلك هي في كل عيد ميلادي تشعرني بأنني طفلها الصغير... كل عيد ميلاد لي كنت أشعر بأنني أولد من جديد.

في يوم 14 من نوفمبر من العام قبل الماضي أخبرتها:

- اليوم عيد ميلادي يا لورين، اليوم أُتِمُّ عاما جديدا من حياتي، في مثل هذا اليوم أنجبتني تلك الجنة، في مثل هذا اليوم أخذت أول أنفاسي...

واليوم أكبر عاما جديدا... تتجدد أمنياتي لعام آخر، عام سأسأل فيه الله أن يجمعني بك، أن أكون أنا وأنت تحت سقف واحد.

- أعلم ذلك يا غيث، إنه يوم انتظرته بفارغ الصبر، كيف لي أن أنسى عيد ميلاد أغلى شخص عندي؟

ثم ما لبثت أن أحضرت كعك عيد الميلاد .

- غيث لقد أحضرت لك كعك عيد الميلاد، لكن أتعلم ما المفاجئ فيها؟ أعلم أنك ستفرح كثيرا!

- وما المفاجئ فيها؟ أخبريني...

- تلك الكعكة يا غيث لقد أعددتها بنفسي، إنها مهداة إلى أغلى شخص في الكون.

- آه! أعددتها بنفسك؟

ستكون سيئة لأنك أنت من أعددتها

ثم إنزعت بعض الشيء ...

- أخبرتها : يا لك من غبية كيف لك أن تنزعجي في عيد ميلادي يا لورين !

دقائق بعدها لتنفجر ضاحكة بعد أن وضعت طربوش عيد الميلاد فوق رأسي .

لتطفئ لورين القناديل ....

تطفئ لورين القناديل والشموع، وتقول: «اليوم زائر جديد... اليوم عيد سعيد».

تذكرت حينها الأيام الجميلة التي قضيناها معا.

طارت بي تلك الظلمة إلى لياليا المقمرة.

كان الظلام... لم يكن هناك شيء يُرى سوى لمعة عينيها، كانتا تشعان نورا.

امتزجت تلك اللحظات برائحة الانتصار، ليتوهج نبيذ المشاعر بداخلي:

- يا لورين اليوم عيد ميلادي... يقال إن هناك أمنية يجب أن يتمناها المرء يوم ميلاده... يا لله جعلت قلبي ينبض بها فاجعلها من نصيبي

أنت كل الأماني، رضيت بذلك القلب الصغير وطنا.

ضميني يا لورين

تعالي ضميني بذراعيك... اغرزيني في أحضان مشاعرك... دثريني بك... إنني أحبك.

سأخبئك اليوم داخل قلبي، سأطعمك قمح مشاعري، سأسقيك ماء الود، ستخضر زهور الحب بداخلنا.

صغيرتي لورين... في عيد ميلادي... أحبك.

«أعياد الميلاد بالنسبة لنا كانت أياما نولد فيها من جديد».

لكن ومع كل هذا الحب الذي كانت تكنه لي لورين، كانت بنفس القدر تخاف خسارتي، تخاف أن أرحل وأتركها، تخشى

عيش حياة تخلو مني، لكنني في كل مرة كنت أضرب توقعاتها عرض الحائط، أنتشلها من باطن خوفها وأحلق بها إلى سماء طمأنينتها، أبرهن لها في كل مرة أنني شخص لا يمكن أن يتخلى عنها.

«يا لورين كنت أود لو أني أستطيع سرقتك من نفسك، كنت أود لو أن لي قلبين لأحبك أكثر».

في عدة مواقف، كنت أخبرها بأنني سأرحل حتى أجعلها تبكي ومن ثم أحتويها بعاطفة هوجاء، عاطفة تأبى أن تفرّط في قلب أحبها. أخبرها بأنني سأرحل فقط لأجعلها حزينة، كنت أحب أن أراها حزينة، حزنها كنت أشعر به، كانت تخفيه خلف ضحكة مليئة بالبكاء، يغلبها الحزن لكن تخفيه ببراعة شديدة، هي لا تسمح لك بتأمل حزنها، لكن الشيء الجميل في حزنها أنه كان يأسرني، أرى عينيها وهما تذرفان الدموع، أرى لوحة سرمدية الألوان، أحببت حزنها، أحببت بكاءها، تأسرني تلك الخدود الحمراء حين تبكي، تطيربي في عالم الخيال... لكن في نفسي أكره حزنها، أكره بكاءها، أكره وقفتها الحزينة... لا أحب رؤيتها حزينة، لا أسمح لأي شيء بأن يجعلها حزينة...

أتذكر:

صغيرتي أود إخبارك بشيء... ربما سيجعلك حزينة لكن سأخبرك... يا لورين لقد وصلني استدعاء للالتحاق بصفوف الجيش الوطني لحماية حدودنا من الإرهابيين، فأنت تعلمين أن الإرهابيين أصبحوا يدخلون وطننا العزيز عبر حدوده... ربما سأغيب عنك فترة طويلة... وقد لا أعود أبدا!

لورين أنا ذاهب إلى مغنية، حيث الطريق الوعرة هناك في الحدود المغربية، مهد المخدرات وشبكات الإجرام، مغنية رمز المعاناة... ربما أي غفلة منك ترديك قتيلا!

حين تستيقظين صباحا يا لورين تجدينني قد رحلت وقد لا نتقابل مرة أخرى!

سكوت مطبق يعم المحادثة.

لورين تتنهد؛ قرأت ذلك في سكوتها.

- أُرسل إليها : لورين، تكلمي!

لم تشأ تلك الفتاة أن ترد سوى بقلب مكسور، قلب رقصت ألغام كلماتي عليه، أردته منكسرا، قلب يتلقى أولى صدماته في الحياة، قلب أرداه رحيل من يعشق قتيلا، سقط على إثره منكسرا في ساحة حب.

ثم بعد صمتها الحزين ذاك وبرودها غير المتوقع، أدركت أن لورين انتابها شيء من الجمود، شيء من الغصة جعلت الكلمات حبيسة حلقها.

بادرتها بالسؤال مرة أخرى:

- لورين ما بك؟ تكلمي!

- لورين تنطق أخيرا: أتعلم؟ ... أشعر بأن الكلمات قد انتهت من جعبتي يا أليف الروح، حروفي أصابها الصمم، ولأول مرة تصدمني كلماتك، تصدمني حروف رحيلك، كان عليك أن تخبرني من المرة الأولى بأنك شخص قابل للرحيل.

سأحتاج إليك في عز افتقادي إياك، ولن أجدك...

سأحتاج إلى السلام الذي يهدّئ حرب روحي بصوتك ولن أجدك

سأحتاج إلى أمان كلماتك ولن أجدك
صدق الذين قالوا أن لهفة الحب تنتهي مع مرور الأيام
أخبرتني أنك جزء مني لن ينفصل إلا بموت أحدنا
وعدتني بأن لا شيء يفرقنا سوى الموت
ها هو الموت يأتي بطرق رحيل كهذه

لقد شكلنا أجمل إيقاع للحب، رقصنا على أنغام العشق، ليالينا أقمرت على ضوء الحب، ما كنت أعلم أنه ستكتب لهذا الحب الأبدي نهاية، ما كنت أعلم أنه سيلفظ أنفاسه الأخيرة على هاته الشاكلة.

طبطبت كلمات لورين على غشاء الروح بداخلي، حركت بداخلي عاطفة أم تخشى على أولادها، عاطفة قلب صادق بالحب، قلب يأبى أن يخطو للقسوة سبيلا... كشعور طفل خائف على دميتيه من الضياع، كجندي مهزوم في لحظة ضعف على أرض معركة طاحنة...

توقفت حينها دون حراك، أحسست أن بيني وبين لورين مساحة كبيرة شاسعة كافية لنشوب حرب، حرب ألهب نيرانها ذلك الشوق المغلف بطبقة من الكره والحب.

- لا ليس كذلك يا لورين، لن أرحل، لا يمكن أن أرحل، لا تنظري إلى الأمور من منظور خاطئ، فقط هي أيام سأقضيها في خدمة الوطن وسأعود... الوطن يناديا يا لورين وعلينا أن نلبي نداءه.

أتعلمين؟ كلماتك السابقة جمدت كل شيء بداخلي، كلماتك جعلتني أسيرا، جعلتني أحس بأنني اللا شيء في هذا الوجود...

- تقاطعني: تعال غدا إلى مكاننا المعهود، أود لقاءك.

استغربت كثيرا من طلبها، بقيت محتارا في الغاية من هذه المقابلة، لكن سرعان ما قابلت طلبها بالقبول.

ذهبت صباحا إلى المكان الذي اعتدنا اللقاء فيه، وصلت... ها أنا هنا... ولورين هناك. فتاة جميلة في أواخر العشرين من عمرها، يفسد جمالها نوع من الشرود الذي يحتل تفاصيلها، لكن سرعان ما قطعت ذلك الشرود بالجلوس بجانبها.

تنظر إليّ وتتنهد ثم تقول بكلمات امتزجت فيها حروف اليأس:

- وددت أن أراك قبل رحيلك، ما أبشع أن يكون الرحيل بلا وداع!

جئت لأودعك اليوم، أنا بقايا حكاية فاشلة، أنا مجرد بطلة أدت دورها في حكايتك بكل صدق وغباء.

يا من تدعي حبي؛ يمر الإنسان بظروف تجبره على التخلي عن أشياء يؤلمه التنازل عنها... أنت تؤلمني ألما لا مثيل له بكلماتك وأفكارك... لم أفكر يوما في الرحيل عنك

كنت أجمل مراحل العمر

ما كان عليك أن تتخذ من حجج واهية أسبابا كافية للرحيل

فقط أؤمن بأن قلبا محبا لا يمكن يوما أن يترك من أحب مهما كانت الظروف

حينها أمطرت السماء بشدة، نظرت لورين إلى الأعلى ثم قالت:

- انظر... شاء الله أن تمطر في آخر لقاء بيننا

شاء الله أن يسوق غيمة الماضي ليهطل من خضمها غيث الذكريات... ذلك المطر الذي كنا نرقص تحته معا... اليوم يرقص على ألحان الفراق، مطر أبى إلا أن يشهد آخر فصول حكايتنا، أبى إلا أن يدون المشهد الأخير من حكايتنا.

بدأت الدموع تتجمع في عيني لورين، بدأت تبكي بصوت هادئ وتقول:

- سأغادرك، سأنسى تلك الأيام، لقد قتلتني هذه النهاية، لقد انتهت آخر ذرات المشاعر يا غيث...

ما إن أكملت لورين كلماتها حتى انكمشت شرايين قلبي، و استقلت ذكريات الماضي السعيد بداخلي. نظرت إليها كإنسان أبكم لم يشأ أن ينطق بحرف واحد، حتى أخرجَتْ علبة حمراء اللون من جيبها تنزع غطاءها، لأتفاجأ بالعطر الذي كنت أخبرتها سابقا أنه المفضل لدي.

تخبرني بكلمات تكاد تغرقها الدموع:

- لقد أحببت أن أحضر لك عطرك المفضل، أحببت أن أهديه إليك شرط أن تعدني بأن ترش منه كل يوم على جسدك كي يبقى شيئا يذكرك بي دائما وأبدا.

- لورين طفلتي... ما هذا؟

- لا تناديني طفلتي، سأبقى يتيمة بعدك.

وقفت عند هذا الموقف وقد تجمدَتْ كلُّ حواسي وإدراكي، ما عدت داخل الزمن الذي أنا فيه ولا المكان. منظر هزّ عواطفي مِن جذورِها كما تَهُزُّ العاصفةُ الهوجاءُ مركبًا صغيرًا وسط أمواجِ محيط عاتيةٍ.

نظرتُ إليها، إلى تقاسيم وجهها، إلى عينيها الدامعتين، إلى النظرات الممتلئة بالحب والمعبرة عن قلب طفولي يستعد لفعل أي شيء في سبيل من يحب.

- ما هذا يا لورين؟

لحظتها أدركت أن العالم لم يعد قادرا على احتواء غصة لورين، غصة انكمشت داخل قلب برئ.

أسرعت إليها، أمسكتها من يدها بحرارة شديدة:

- لورين صغيرتي، كفكفي أثر الدموع من خدّيك، أُنظري إليّ نظرة هادئة مسترسلة، أنصتي... أنا هنا ولن أذهب إلى أي مكان، سأبقى بجانبك.

مسحت لورين شيئا من الدموع التي كانت عالقة بين عينيها.

لورين يا من سرقت قلبي، لورين يا من جعلتني مجنونا بحبك.

أحبك أحبك أحبك، أراك نجمة تضيء سمائي، أراك القمر في حياتي الليلية، أراك الوحيدة في عالمي، لا يمكنني نسيانك، لقد كنت حبيسة أفكاري، لقد غزوتها! عقلي كان الأرض الفلسطينية، كنت أنت إسرائيل عقلي.

لورين يا من انتزعت سلامة عقلي؛ أنت أجمل هدية منحها لي القدر، لقاؤك كان أجمل صدفة في حياتي، لقد كنت نتاج دعوات أمي بأن أصادف أشخاصا خيّرين في حياتي، نعم أنت لم تكوني شخصا خيّرا فحسب بل كنت الخير في حد ذاته لورين لقد كنت أباهي أيامي الحزينة بك

دعيني أخبرك أشياء تجهلينها:

لم أكن يوما أتوقع بأني سأقع في الحب، لكنك غيرت مجرى حياتي، كنت الاستثناء، عندما التقينا في المرة الأولى أحسست أن العالم قد توقف إلى الأبد، أحسست أنه داردورة أخيرة حول نفسه ثم أعلن عصيانه لمدارات الحياة كلها، حينها انقشعت سحابة الأحزان وأشرقت شمس دافئة رصعت سماء الحب بألوان قوس قزح الذهبية، تسيد القمر زرقة السماء وانقادت له النجوم وخضعت لضوئه دجج الظلام وترقق النسيم لنا فأندى وجوهنا وانبعث في الوجود لحن استكانت له النفس، لحن رقصنا معا على مقطوعته فشكلنا سيمفونية الحب بأروع النوتات، وكأن الكون لحظتها أصبح يشع بنور حبك... حينها الأرض تهيأت لاستقبال مولود جديد؛ حبنا الذي تعسر في اللقاء مخاضه، حبنا الذي نبت في أرواحنا وارتوى من نبع الصدق ونهل من ينبوع البقاء واستمد وجوده من عبق الحياة ثم انسكب في أعماق أرواحنا، حبا رائقا عذبا مستساغا رست سفينته على ضفاف أرواحنا ليجعل من دقات قلوبنا موطنا له.

استدارت إليّ، عمّ السكون داخلها، هدأت مجرات الغضب بداخلها.

لورين... أزيلي أثر الحزن من عينيك، أنا لا أحب أن أراك حزينة، لا يمكن أن أراكِ حزينة...

إياك أن تكوني شيئا حزينا... أنت وحدك السعادة في أسمى معانيها

تنهدي... وأخرجي الآن زفير وجعك، أخرجي هواء حزنك، استنشقي برئة الأمل التي لم تستعمل بعد...

لقد خلق الله الناس وجعلهم رحمات لبعضهم البعض، وخلقت أنا لأكون رحمة لك.

يا لورين، لقد خلق الله الناس وما أراد أن يعذبهم أبدا حتى رغم عصيانهم له وقدرته عليهم، كذلك في الحب خلقت أنا لأكون رحيما بك، أن أربت على كتفك عندما يهترئ، أن أمدك بحنان يلمس قلبك المتعب، أن أداوي جرحا نازفا بكلمة حنونة، تلك أعظم مقاصد الحب.

تنظر إليّ لورين وتبتسم، يا لتلك الابتسامة!

لا أدري لماذا ترتجف أطرافي أمام تلك الابتسامة يا لورين! عندما أنظر إليك مبتسمة تثيرين جنوني، يختلج قلبي وتتبعثر جوارحي وتصاب حروفي بشلل تام. شفتيّ اللتان لا تعرفان الهدوء تتوقف كلما رأت ذلك النبيذ المتدفق بين ثنايا ضحكتكَ، تتغير حركة الكواكب وتتفجر براكين الشوق وتسيل ينابيع المشاعر بداخلي...

تتنهد لورين، تهدأ رياح الغضب التي كانت تعتريها، تقترب مني وتتلعثم وتقول بكلمات مفعمة بالحب:

- حقا لقد رأفت بي الحياة حين منحتني إياك...

أنت النور بحد ذاته...

لقد سقط قلبي أسير حبك...

مشيت إليك بكامل انهزامي، مشيت إليك مثقلة بالهموم...

لكنك كنت القلب المحب... أحببتني بكامل هزائمي وعيوبي...

يقولون: كل عين تراك على قدر حبها لك...

وأنت رأيتني من زاوية القلب. رأيت ثورة غضبي فأعلنت لها السلام. رأيت سقوطي نحو الهاوية فكنت له جناحين فحلقت. رأيت بهجتي تمتزج بدموعي فطرت بي عاليا في عالم السعادة...

أعدت إيماني بالحب بعد أن ألحدت بوجوده...

سأغفو هذه الليلة على ألحان سيمفونيات حبنا المشع... سأرقص الليلة فلمعة عينيك رممت أجنحتي المكسورة...

ولادة من جديد

أهلا بقلبك طفلا للحب...

- يا لورين كم تراودني رغبة تملّكك حين أراك تتكلمين هكذا، أود سجنك بين شغاف قلبي...

أنا وأنت سنبقى أبديان يا لورين.

- غيث! إنها الساعة 12:00 منتصف النهار موعد خروج أختي الصغيرة «تاليا» من المدرسة. تعال نذهب سويا إلى المدرسة لإحضارها...

مشيت كالطفل الصغير خلف دليلتي أتتبع حركاتها، التفاتاتها، تنهيداتها...

سرعتها تارة في المشي وبطأها تارة أخرى...

أقول لها: «لورين انظري إلى تلك الفتاة هناك، كم هي جميلة! انظري إلى لباسها الرائع المتناسق، إلى الألوان البهية التي تكسوها، إلى ثغرها الباسم، إلى وجهها المضيء.

يا لها من جميلة!»

ما هي إلا ثوانٍ قليلة من ذلك حتى تستشيط لورين غضبا. تسرع إلي، تضع يديها على عينيّ بشدة تضغط لتغمضهما...

- غيث لن أسمح لأي فتاة بأن تأخذ مكانتي أتفهم؟ إياك أن تفكر في أي فتاة أخرى مهما كانت... أنت لي.

لورين خلف صمتها ذاك دائما ما يوجد بركان على فوهة الانفجار.

غيرتها كانت غير طبيعية.

كانت تبالغ في غيرتها، تحبني بشكل مفرط. كانت تود أن تسجنني بين دقات قلبها، تماما مثل ما كنت أفعل أنا.

«يا لورين كنت جميلة في كل شيء».

وصلنا أمام باب المدرسة ننتظر الأخت الصغيرة تاليا.

ها هي تخرج.

تسرع إليها لورين، تمسكها بيدها وتحتضنها لتقبِّلها كأم وجدت ابنتها الضائعة بعد عام من البحث...

- آه تاليا إنها جميلة، جميلة مثلك، تشبهك تماما يا لورين.

سأعطيها علبة من الشوكولاتة، تعالي يا تاليا.

علبة الشوكولاتة هي لك.

اختلست تاليا علبة الشوكولاتة مني وهربت حيث حضن لورين...

بدا على وجه لورين شيء من الشحوب.

لقد كانت الغيرة تسري في دماء لورين...

- لورين تعاليْ نذهب حيث الدكان هناك سنشتري علبة شوكولاتة لصغيرتي بعد أن أخذت أختها العلبة الخاصة بها.

تتنهد أخيرا. منحتها علبة شوكولاتة أخرى.

كانت لورين مهووسة بعشق الشكولاتة...

تملكها نوع من الغيرة لا لشيء سوى أنني أعطيت أختها تاليا علبة الشكولاتة بدلا منها...

كم أحب غيرتك تلك يا لورين! كم تستهويني ملامح الغضب التي تعتري وجهك الهادئ حين تغارين!

«الغيرة القلب الثاني للحب»

مضى شيء من الوقت حتى مشينا، لورين برفقة أختها الصغيرة تاليا، كانت تود الذهاب إلى منزلها، عزمت على إيصالها إلى بيتها حتى التقينا صديقتها المفضلة «إسراء».

طلبت منها أن توصلها إلى منزلها وأن تعتني بها جيدا:

«إسراء، لورين مريضة اعتني بها جيدا إنها متعبة».

ودّعتهما، نظرت مطوَّلا في عيني لورين... حتى عندما مضيت بقيت ألتفت ورائي إليها حتى أضحت لا تظهر من على مرأى عيني.

حقا الالتفات أثناء الوداع ما هو إلا التقاط لصورة ستبقى في الذاكرة إلى الأبد.

«ثمة طعنة نتلقاها في البداية تضل ندبتها باقية إلى الأبد».

***

الفصل الثاني: ونلتقي غرباء

" قصير درب الحب .. طويل درب النسيان "

ليلة الإعدام «أبريل»

كأنه كتب لنا في هذه الحياة أن نصادف شخصا غيرَ بني البشر.

مكتوب عليك في هذه الحياة أن تصادف شخصا واحدا ستقع في حبه بشكل مفرط للغاية، سيظل قلبك متعلقا به، ستراه أصدق إنسان على هاته المعمورة. سيخبرك أنه مختلف عن باقي الأشخاص، ستراه أنت كذلك بل ستراه الشخص الوحيد في العالم. سيتسلل إلى قلبك بطريقة مرعبة، ستحب روحه، ستخاف عليه، ستفعل كل ما بوسعك لأنْ تجعله سعيدا. تتأثر لغيابه، تحزن لحزنه، تفرح لفرحه... ستمنحه مفاتيح قلبك، مفاتيح سعادتك، ستظل روحك وفيّة له، ستجد روحك طفلا صغيرا بمجرد محادثته.

«نصبح صغارا في الحب»

ستحسّ نبضات قلبك تزداد بمجرد سماع اسمه أو أي شيء يتعلق به... سيمضي يومك مُرًّا دون التحدث إليه، دون مشاركته تفاصيلك اليومية، تشاركه همومك، فرحك، سعادتك، انشغالاتك... ستُلزمك المواقف في كثير من المرات التنازل عن حقوقك بل حتى كرامتك، فقط من أجله ليس خوفا منه بل خوفا من رحيله.

«حتى الكرامة التي كنت تتباهى بأنها أعز ما تملك ستخسرها مرغما أمام من تحب».

ستحاول محو أخطائه، ستخلق ألف عذر لتبرير أخطائه، ألف عذر لتبرير غيابه...

لكن للأسف لن يكون هذا الشخص بقدر هذه التضحيات التي تقدمها له، سيتجاهلك مرارا وتكرارا، سيذيقك مرارة الخذلان، ستشرب من كأس المرارة، سيكون كالريح العاتية لن يترك فيك غصنا ولا ورقة خضراء غضّة. سيرحل عنك، ستحس صوت الخيبة داخلك، ستتآكل روحك، سيترك في نفسك جرحا كبيرا. ستنطفئ تلك الروح المحبة للحياة التي كانت مغروسة بداخلك، ستزول تلك اللمعة البريئة التي كانت تظهر بوضوح في عينيك، سيحل محلها نقط وهالات سوداء لا ذنب لها سوى أنها أحبت بصدق. ستفقد ذلك الطفل السعيد البشوش الذي كان بداخلك، ستنطفئ روحك مهما ادعيت عدم الاكتراث، سيموت الأمل بداخلك، ستتظاهر بالنسيان لكن كل شيء بداخلك يذكرك بجحيم الفقد.

«الرحيل في الحب تيتم»

ستمرض روحك، ستفقد الثقة، ستعاني قلة النوم وكثرة التفكير، ستقلِّب وسادتك كثيرا عند النوم فالجهة العليا أصبحت مبللة تحت وقع الدموع، ستغسل ذلك الوجه المضرَّج بالدموع كل ليلة...

ستصل إلى مرحلة غريبة في حياتك... ستنهار!

كذلك أنتِ فعلت بي هذا يا لورين في تلك الليلة.

ليلتها...

على أضواء النجوم

هنا حين يختفي القمر

على صوت أنات الألم
هنا حين يأذن الرحيل
في ليلة ظلماء
تغمرها صرخات الوداع
هنا حيث أوراق الذكريات مهملة على رصيف الرحيل
هنا في ليلة سوداء
صدى أصوات كئيبة
تهمس لنا هناك من بعيد
إيذانا بولوج لحظات الوداع
لحظات شيَّعت فيها قلبي
لحظات أغمضت فيها الدنيا جفونها وأظلمت علي
حينها كتبت يداي شعر الفراق
وعزفت أصابعي ألحان الرحيل
فتراقصت روحي على نغم بكاء ونحيب وتنهيدات بائسة.

هذا هو مشهد الوداع، لقد كان حزينا بما يكفي، أ يليق لكل ذلك الحب هاته النهاية؟ أين ذهبت كل تلك المشاعر، الليالي والمواقف؟ لست أدري كيف انتهى كل ما كان بيننا في ليلة واحدة؟ حديثنا في المرات السابقة كان باهتا للغاية، كنت أرى رغبتك الملحة في الرحيل لكن سرعان ما كنت أعتبرها حدثا عفويا ناتجا عن طفولتك البريئة فقط، حتى جسدت تلك الرغبة صدقها الليلة.

ليلتها!

كنت جالسا بقرب أحد الدكاكين الموجودة بحيِّنا «حي الشواقة بمقرة» أحد الأحياء الميسورة الحال المحتفظة بتراث

الأجداد، الخروج فيها في هذا الوقت المتأخر من الليل يعتبر من الأفعال الغريبة بين أفراد حيّنا. ينام الرجال بعد أداء صلاة العشاء من فرط التعب بعد يوم شاق، كذلك النساء تنمن بعد يوم شاق مع أشغال المنزل.

«إنك لا تحتاج العيش هنا سيارات فخمة وأموال طائلة، يكفيك عقلا يقدّس تراث الأجداد».

هاتفي يستقبل رسالة من لورين تقول فيها:

- «غيث سأتركك الليلة، سأرحل عنك، سنكتب لحبنا نهاية، لكل شيء نهاية وحبنا اليوم نهايته».

- تمزحين يا لورين كعادتك! الويل لمزاحك الثقيل هذا.

- لا يا غيث، اليوم سألقي عليك سلام الراحلين، لا يمكن أن نبقى سويا، ثمة ظروف تجبر الإنسان على الرحيل، تجبره على المضي قدما نحو الأمام دون الالتفات إلى الوراء، إني قررت وهذا قراري: سأرحل عنك لا يمكن أن نبقى سويا، أنا سأتزوج شخصا آخر في المستقبل وأنت كذلك ستحب فتاة أخرى وتتزوجها... كنت أود إخبارك بموقفي هذا حتى جاء الوقت المناسب... يا غيث اعتنِ بنفسك جيدا ستستيقظ صباحا ولن تجدني.

- يا لورين لا تقولي هذا، إياك أن تفعليها... أ يغدو كل هذا الحب فراقا يا لورين؟

إن هاته الحياة لا يمكن أن أعيشها بدونك، الحياة تأبى إلا أن تجمعني بك فتولد من عقم البعد مواعيد اللقاء، ومن عقم الخصام جمالية التسامح... منذ أن تلقيت رسالتك الأولى بنيت لك في روحي منزل البقاء، لا يمكنك أن ترحلي... لا تفعليها!

- لا يا غيث أنا آسفة، أخبرتك منذ مدة أن الظروف عدو الحب، تصَب فوق نار الحب فتطفئها... إن هذا القدر يأبى أن نكون أنا وأنت سويا.

- يا لورين أنت تعلمين كم أحبك، كم أنا متيم بك، ألم تفكري لحظة كيف سيكون حالي بعد رحيلك؟

- أعلم ذلك يا غيث، لكن هذه أقدار الحياة وجب علينا أن نؤمن بها

عليك أن تقطع درب النسيان مثلما سأفعل أنا تماما.

- لورين أنا لا أقدر على نسيانك، هل تقدرين على نسياني؟

- أجل، إن النسيان بالنسبة لي أشبه بشربة ماء، إنه يرويني بعد أن تنضبَّ جفون مشاعري يسقي مآرب الشوق بداخلي فيغنيني عن جيش الحنين والذكريات.

«لورين حتى عند رحيلها نطقت بأبشع الكلمات في حقي، نخرت عظام قلبي بكلماتها القاسية تلك، كانت ليلتها كمدفع ثائر، كنت حينها كمدينة تتعرض للقصف...

ثم إنه لم يسعني فعل شيء أمام هول هذا المنظر سوى الانتحاب».

- لا تقولي ذلك يا لورين، أنا لا أقوى على فراقك، لا أستطيع نسيانك يا لورين... أخاف أن أستيقظ يوما ما ولا أجدك، أخاف أن أُمضي عمرا لا تكونين فيه بجانبي، أخاف أن أمسك هاتفي وأبحث عن اسمك بين الأرقام ووسط المحادثات ولا أجدك، ترعبني فكرة عيش زمن يخلو منك.

يا لورين إنني أحبك، لا تتركينني!

- يا غيث الحياة مليئة بالتجارب، مليئة بالحكايات،

مليئة بالذكريات، مليئة بالأقدار.. اليوم نلتقي، غدا نفترق، هذه ميزة الحياة.

يا غيث أعلم أنك تحبني لكن ثمة لحظة وداع.

أدركت حينها أن لورين تود الرحيل حقا، داهمتني دموع الخيبة، مسحتها تحت وقع أصابع مرتجفة، تحت وقع جسد بدأ بفقدان شيء ما بداخله... كأن الروح تنتزع.

- يا لورين إنني أستيقظ كل يوم على وقع رسائلك الصباحية، أبتسم لهاتفي... أحب الصباح لأنك أنت فيه... لا يمكن أن أتخيل صباحا يخلو من تحيتك المعتادة.

- إنها مجرد أيام وتمضي يا غيث، كما مضت أيام الحب الذي كان بيننا تمضي أيام النسيان.. لا يجب أن نتمسك بذكريات الماضي ثمة حاضر نعيشه ومستقبل زاهر علينا انتظاره.

سالت دموع الفراق من عيني ، احتضنت كلمات لورين القاسية بقلب يوشك أن يلفظ آخر نبضاته...

حينها لم أجد أمامي سوى ليلة سوداء، قلب على وشك الانهيار ووداع.

في ليلة بهت فيها ضوء القمر وسيطر الهدوء وتجسدت ملامح الخذلان داخلي، اشتعلت نيران الرحيل في حضرة نجوم سوداء ترصع سماءا ملغمة بالذكريات، نظرة مني إلى الماضي وتخرج أشباح الذكريات لتتراقص طربا على دموع أليمة وخطوات مزجية بصرخات الوداع وزغاريد الفراق.

- يا لورين لقد رسمت بأمانينا ملامح مستقبل شجي، مستقبل كان يستمد أحلامه من ملامح حاضرنا البريء...

أ يعقل أن يكون هناك مستقبل يخلو منك؟

كيف لي أن أعزف ألحان المستقبل في حضرة غيابك؟ يا لورين سيكون غيابك لحنا حزينا يذكرني بك؟ لا ترحلي يا لورين رجاء!

وانهمرت بالبكاء لم أكن أدري من أكون، كنت أحس أنني سأصبح أعمى من فرط البكاء...

يا لورين ما كان عليك أن تتركي وراءك كل هاته الندوب...

- إلى اللقاء يا غيث، لن نلتقي مرة أخرى!

«كلماتك الأخيرة التي نطقت بها قبل رحيلك كانت قاتلة، تلك الكلمات أحاول دائما تذكرها، أتذكرها كي لا أحن».

يا لهذا الحب الغريب المشبوه... هذا الحب يسحرنا ببدايات نظن من خلالها أنه لن ينتهي، يجعلنا نركض في فضاءاته الرحبة نحلق ونركض، نحتسي السعادة، نصبح أطفالا من خلاله... لكن سرعان ما يحمل نهاية حزينة، نتبعثر من خلالها، لا يبقى لنا سوى بقايا خيبة متشحة بالسواد.

أسرعت حينها متصلا بصديقتها المفضلة إسراء:

- إسراء لست أدري ماذا أقول لك، لكن لورين تركتني محطما أمام هذا الكم الهائل من ركام الحب ومضت! هل لك أن تقنعيها؟

سكتت إسراء هي الأخرى، لم تحرك ساكنا أمام هذا المنظر، تجمد قلبي، أدركت لحظتها أن لا أمل في عودة لورين...

«لا يجب أن نشارك الناس همومنا... أحزانُنا يجب أن تبقى حبيسة قلوبنا... كتمان مؤذٍ أفضل من بوح ملطخ بدماء الكرامة... عزة النفس تضاهي كل المشاعر».

ومن ثَم حملت خيبتي داخل قلبي المنهد وبدأت رحلة المجهول.

«إن أعظم الأشياء التي فعلتها تجاه لورين أنني أحببتها بكامل ما فيها، وإن أحقر الأشياء التي فعلتها لورين تجاهي أنها تركتني ومضت».

***

محادثاتنا ومكالمتنا

لورين كانت محادثتك الأكسجين الذي يضخ دماء قلبي، كنت أتفرغ من أكبر انشغالاتي لأحادثك، كنت أستغل أبسط المواقف لمحادثك... كنت أتخذ من محادثتك ملجأ أهرب إليه من هذا العالم البائس.

أفرح كثيرا لمجرد وصول رسالة منك، تحملني رسائلك إلى عالم آخر...

اعتدت أن أعيد قراءة محادثاتنا آلاف المرات حتى بعد رحيلك...

كاذب من يقول إن السفر عبر الزمن مستحيل، محادثاتنا يا لورين ظلت البوابة التي تأخذني إليك بعد رحيلك، ترميني كالطفل بين أحضان أمه... أجلس في ركن صغير بغرفتي أقرأ رسائلك وأبتسم.

فكرت مرارا وتكرارا: ماذا لو أرسل لك تلك المحادثات؟ هل ستتذكرين روحك الجميلة التي أحبتني يوما ما؟

أتذكر:

- كنت أقول لك: يا لورين تعالي نتحادث.

- تجيبينني : آه من محادثتك إنها مليئة بالشجارات!

- أجيب:

يا لورين: عندما أقول لك تعالي نتحادث، وقتها أكون مجردا من كل أسباب الخلاف، أكون مهيئا للحديث معك

لا غير... لست أعني بها تعالي نتشاجر لكن الحب نفسه يفرض علينا ذلك... لا أعني بذلك أن الحروب في الحب جميلة... الخلافات فاكهة الحب...

لكن لا يجب علينا أن نتعمد ذلك، لا وجود لحب نتعمد فيه الشجار... مثلا لو تأملنا الحرائق الأخيرة التي ضربت خنشلة وتيزي وزو سنجد أن سببها شرارة صغيرة.

كذلك الحب؛ أسباب الخلافات فيه بسيطة لا يجب أن نتركها تسيطر عليه، علينا إطفاؤها تماما كما نطفئ الحرائق عندما تشتعل، لا أن ندعها تتراكم في شكل عقد.

«ثمة فرق بين من يسعى لإطفاء النيران وبين من يلعب دور الرياح».

أتذكر:

كنت ترسلين لي كل يوم: «صباح الخير».

كنت أستيقظ صباحا لأجل تلك الكلمتين.

أمد يدي بسرعة إلى هاتفي لأجد تحيتك الصباحية المعتادة:

«صباح الخير» كلمتان فقط منك كانتا كافيتين مني لأحب الصباح.

أتذكر:

كنت ترسلين لي: أنك متعبة

كنت أقول في نفسي: متعبة عليها أن ترتاح ما الداعي لإخباري بهذا!

كنت ترسلين لي أن أختك الصغيرة «تاليا» قد قتلت عصفورا جميلا كنت تضعينه على نافذة شرفتك.

كنت أقول في نفسي: قتلت عصفورها! عليها أن تشتري آخر... ما شأني أنا بعصفور مسجون في قفص موضوع على نافذة؟

كنت ترسلين لي أن جارتك فاطمة قد تشاجرت مع زوجها.

كنت أقول في نفسي: يا لغباء صغيرتي! ما دخلي في فاطمة وزوجها؟

كنت ترسلين لي: أن زميلة لك قد تمت خطبتها من محبوبها، كنت أقول في نفسي: يا لها من حمقاء! ما دخلي في زميلتك ومحبوبها الذي لا أعرفه حتى... أريد محادثتك أنت لا أخبار جارتك وصديقتك والعصفور.

أنا الآن يا لورين يهزني الحنين لمثل تلك الرسائل، تعاليْ أخبريني كيف حالك؟ ألا زلت متعبة! كيف حال أختك الصغيرة؟ كيف حال العصفور؟ جارتك فاطمة هل اتفقت مع زوجها؟ صديقتك أ تزوجت من محبوبها؟

تعالي أخبريني!

أنا الآن أنتظر رسالة منك، لا أمانع أن ترسليها ليلا وأنا أغط في نوم عميق، لا أمانع أن ترسليها نهارا وأنا وسط انشغالاتي كما كنت تفعلين... لا أمانع.

«ثمة أشياء أشبه بالسعادة لا ننتبه لوجودها إلا بعد أن نفقدها».

في كل يوم كنت أنام على أحضان محادثاتك. في كل ليلة تكونين السبب الوحيد الذي يجعلني أقاوم النعاس. تسألينني عن رغبتي في النوم في كل مرة كنت أخبرك بأني لا أود ذلك. كنت الطرف الخاسر بين معركتين طرفاها النوم وأنت؛ أرجح كفتك،

أصارع النوم فقط من أجل كلماتك، أصارع النعاس ورغبة عينيّ في النوم فقط من أجل تلك الحروف التي كنت ترشينها برذاذ مسكر مُذهِب للعقل. لست أدري أي أنواع الكوكايين كنت تدسينها في محادثاتنا. كنت أظل كذلك حتى يسرقك النوم مني. أظل مهزوما بدموع عينيّ الراغبة في النوم حتى أتأكد من أنك غفوت!

في لياليا الجميلة أبيت مهزوما بتلك الرسائل. أبيت مهزوما برسائلك.

***

لكنك يا لورين كنت عمياء القلب

هناك أشياء تبقى عالقة في ذاكرة القلب لا يمكن بأي طريقة أن تمحى، ستلتهمها نيران الفراق، ستهب عليها عواصف النسيان، لكنها تبقى عنيدة تأجج رياح الماضي فتحرك سحب الحنين فيهطل سيل دافئ يطفئ نيران الفراق ويمسح غبار النسيان لينجب ولدا عاقا يسميه: الذكريات.

أ تعلمين يا لورين؟

لقد تمت مناداتي بالمتخلف (المعقد) آلاف المرات ومن آلاف الأصدقاء بل حتى من أفراد أسرتي... كنت أتجاوز ذلك، لا ألقي بالا لذلك، على العكس كنت أعتبرها شيئا محفزا بالنسبة لي للمضي إلى الأمام، كنت أتفاخر بذلك...

إلى أن ناديتني بها ذات يوم أحسست ثقل كل شيء عليّ، أحسست بأن وجودي هو اللاشيء في هذا العالم، هو اللاشيء بالنسبة لك.

«كم أنت مثير للشفقة!» لا زالت هذه الكلمة تعزف لحن الحزن على أوتار قلبي. لامست قلبي كثيرا يا لورين، تركت في نفسي جرحا عميقا لم تستطع حتى أيام الفراق محوه، كلماتك كانت كالسهام تخترق جسدي، تنخر عظام قلبي... كلماتك القاسية كانت تشعرني بثقلي على الأرض، بعبئي عليك، كانت تهد جسدي... كلماتك القاسية يا لورين كانت تصيبني بالمرض

«كنت ترغميني في كل مرة على الرحيل بأفعالك تلك، لكنني لم أكن لأفعل ذلك، كنت أكتفي بعتاب بسيط أعتبره عقابا ثم أبدأ بحبك من جديد».

كنت أظن سابقا أن الحب راحة وتفاهم، كنت أظن أن الحب خلق للراحة، للتفاهم، للود في التعامل، لم أكن أدري يوما أنه خلق للمعارك، خلق لمثل كلماتك الجارحة، خلق للفوز في معارك النقاشات مع أشخاصنا المفضلين.

خلق للبرود... برودتك كانت تؤلمني، كنت أعاملك بحرارة مشاعري لكنك كنت تطفئينها بثلوج تعاملك.

قرأت ذات مرة في أحد المنشورات:

«معظم الذين يهددون بالرحيل، هم لا يرحلون هم فقط يريدون أن يُطلب منهم البقاء، يريدون فقط أن يشعروا بأن وجودهم مرغوب فيه».

أعجبتني كثيرا هذه العبارة كيف لا وهي التي داعبت جرحا يسكنني؟ فكرت قليلا حتى جاءت في مخيلتي فكرة أن أجرب هذه المقولة معك.

أخبرتك: لورين سأرحل عنك سأتركك للأحزان سأتركك وحيدة...

لكنك عاملتني ببرود كعادتك، لم يحرك هذا فيك ساكنا، كان رحيلي اللاحدث بالنسبة لك، كان غيابي أو حضوري هو الشيء نفسه بالنسبة لك، لطالما كنت تتحدثين عن الحزن رغم أنني بجانبك، تثرثرين بالوحدة رغم أني جالس بجانبك، تتحدثين عن كرهك للحياة رغم أني بجانبك.

«بجانبك كعادتي... وحيدة كعادتك»

لورين

لربما لم يكن هدفي الأول أن تعامليني المعاملة نفسها التي كنت أعاملك بها، أو أن تردّي إليّ كل ما كنت أمنحه لك، أو أن تبادليني كل شعور جميل كان موجها لك. على العكس من ذلك... كانت أكبر رغباتي أن تَريْ بعين القلب كل ما كنت أفعله من أجلك، أن تقدِّري تلك التضحيات التي فعلتها من أجلك، أن تقدِّري مشاعري حين كنت أدافع عن نفسي أمامك دون سبب، أن تقدِّسي تلك المبررات الواهية التي كنت أحاول إقناع نفسي بها كحجة حين تغيبين.

«قد لا نحتاج رد الجميل في بعض الأحيان بقدر ما نحتاج التقدير».

كانت ستكون أعظم انتصاراتي لو أنك قدِّرت المرات التي لجأت فيها للصمت كحلٍّ لمشاكلنا خوفا من رحيلك خوفا من فقدانك، كانت كل رغبتي أن تقدِّسي حبي العميق لك، لكنك يا لورين كنت عمياء القلب.

«تلك التضحيات العمياء التي تقدمها على حساب نفسك ستجني مرارتها لاحقا. سيمضي الوقت، الأيام، الأشهر، والسنين ...

ستكتشف أنك قدّمت الكثير من الظلم لنفسك
الكثير من اللاشيء لروحك
تلك التضحيات ستنقلب عليك رأسا على عقب
ستحاصرك ذات مرة بجملة من الأسئلة
إجابتها كلمة واحدة «قد رحلوا»

لا أحد سيقاسمك الشعور... لا أحد سيبقى بجانب قلب منهار
في نهاية المطاف أنت محاصر بلا أحد»

***

قلب وعقل حيث معركة انتظار

«أسوأ المعارك هي تلك التي يكون فيها الجسد مَسْرحا لمعركة طرفاها العقل بسلاحه النسيان والقلب بسلاحه الانتظار».

فقيدتي...

لكِ أن تتخيّلي حجم الدمار الذي تعانيه نفسي بعد كل هذه الحرب...

أن تتخيّلي حجم المعاناة التي يعانيها جسدي كونه مسرحا لمعركة لا فائز فيها...

أن تتخيّلي حكمة عقلي البالغة وتفانيه في ترسيخ ثقافة النسيان لنفسي المنتظرة ....

أن تتخيّلي طفولية قلبي الذي لا زال بدائيا يتكلم بلغة الانتظار....

«كل الذين خُذلوا هم أشخاص أَعدموا حكمة عقولهم وبالغوا في تقديس أهواء قلوبهم فسقطوا ضحية مشاعرهم العمياء».

لورين....

لا أصدق بأني الآن أكتب لك هاته الأوراق...

لا أصدق بأني أشيع جنازة غيابك بهاته الكلمات...

لا أصدق بأنني أقرن اسمك بكلمة «انتظار»...

لا أصدق بأنك غائبة، بأنني منتظر...

لم أكن أتوقع يوما بأنك ستغيبين...

لم أكن أتوقع يوما بأنني سأقع ضحية قلب لا زال بحبك طفلا...

بأني سأقع ضحية وطن خذله قاطنوه...

«فلسطيني ثائر أنا... خائنة عربية أنت»

لا أعلم كيف تتظاهرين بالغياب بينما أنت في قلبي دائمة الحضور... حاولت ولا زلت أحاول نسيانك، لكن تلك الذكريات تأبى ذلك، ما إن أتباهى بالنسيان حتى أجدها تهيئ نفسها للخلود الأبدي.

حقا كم مؤلم ذاك الانتظار!

كم هو مؤلم ذلك الانتظار الذي يجعلنا نتحسس خطى الراحلين!

الذي يجعلنا نداري دموعا حارة بقدر حرارة الشوق

الذي يجعلنا عبدة الوقت

الذي يجعلنا تحت وطأ الحنين لأشخاص لم يكن لهم في واقعنا سوى قلب هش ينبض بهم

الذي يجعلنا نعاتب أنفسنا على سيرها خلف تلك البدايات التي كانت تخبأ نفسها خلف قناع النهايات البشعة.

حقا كم هو مؤلم أن نمنح الانتصار لأشباه مشاعر يقودها انتظار غبي على حساب عقل بالغ شجي.

«لكل أحد منا نقطة تقطن أعماقه النفسية، هذه النقطة يكمن دورها في إحداث توازن عادل بين العقل والقلب. عند اكتشافها يصل الإنسان لمرحلة النضج أن لا نميل لمشاعرنا

دفعة واحدة فنعدم الإنسان البالغ الموجود في ذواتنا وأن لا نميل لعقولنا فنكبح الطفل الصغير الموجود بقلوبنا».

***

النهايات مقابر الحب

أيعقل أن شخصا واحدا قادرٌ على فعل كل هذا بنا؟

أيعقل أن غياب شخص واحد قادرٌ على جعلنا أشباه موتى على قارعة الحنين؟

أيعقل أن قلوبنا به ليلٌ قمرهُ شخصٌ غائب؟

لورين...

لقد تغيرت كثيرا بعد رحيلك؛ لم أبق ذلك الشاب المبتسم المفعم بحب الحياة، أصبحت محبا للسهر، أصبحت صديق الليل، الليل رفيقي الأبدي أخذ مكانه بعدك، لم يبادلني هو الآخر شعور الحب كما فعلت أنت تماما.

«تقهرنا الأشياء التي نحبها»

كان قاسيا معي متمردا متناقضا، يحرك بداخلي الحنين إليك، يشعل نيران الشوق لكن سرعان ما يطفئها بدموع ظلت تلك الوسائد شاهدة أبدية عليها.

نهاري هو أيضا لم يكن مختلفا عن ليلي، كان مُرًّا دون الحديث معك، مُرًّا دون سماع كلماتك.

رحيلك قد آلمني كثيرا؛ ما زلت أبحث عن السبب الحقيقي وراء رحيلك، أكان التفريط فيَّ سهلا لهذه الدرجة؟! لم أكن أدري أني كنت وحيدا طوال الفترة التي قضيتها معك.

أيعقل أن ينتهي كل ذلك الحب بمجرد موقف عابر؟!

أيعقل أن نصبح مجرد أشخاص عابرين بعد كل تلك المواقف التي جمعتنا؟!

لا أنت بقيت كما عرفتك ولا الحب بقي كما كان.

يا لورين...

الحب لم يبق كالسابق

إني مدين لنفسي بمئة اعتذاروألف توبيخ

مئة اعتذارحين رحت أقدم لك آلاف التضحيات تحت مسمى الحب

ألف توبيخ حين أخبرتك ذات مرة أن الحب هو تآلف الأرواح

الأنفس تشتكي مما فعله الحب بها

الحب أيضا يشكو مما فعله الأشخاص به

يبكي الحب يا لورين

يبكي من تلك الآلام ومن تلك الغصّات ومن تلك الندوب، يبكي الحب لما تفعله به ليالي الذكريات وآهات النسيان

يا لورين، لم يكن الحب يوما كما أخبرتك به الحب؛ زيفٌ وخداع ورحيل وفراق وانتهاك للكرامة!

أهكذا الحب يا لورين؟

أنت وحدك من تعرفين الإجابة؛ لأنك لطخت الحب الطاهربدماء الغدر، وسلبته الشرف، حفرت له قبرا من رماد، وضعته فيه ورششت فوق أيامه دموع لياليه.

أدركت يا لورين أن الحب لا ينشأ هكذا.

الحب لا ينشأ من كون شخص يسعى لإقناع الآخربحبه له. الحب ينشأ من شخصين أحبا العالم فقط لكونه الشيء

الوحيد الذي استطاع أن يجمع بينها.

ينشأ الحب من شخصين اقتنعا بأن الطرف الآخر فيه هو الشيء الوحيد الذي لا يمكن الاستغناء عنه في عالم فيه من الشبه أربعين.

عندما ينشأ الحب هكذا تكون دعامته متينة، لا يمكن أن تهدمه سحابة خلاف عابرة أو أن تمزقه عيوب الطرف الآخر...

أما عندما ينشأ الحب من كون الشخص يحاول إقناع الآخر بحبه له ستكون النتيجة واحدة: شخص يحب ويحاول أن يقنع، والآخر يحاول أن يحب ويرحل.

عندما نشأ الحب من كوني أحاول إقناعك في كل مرة يالورين كانت نتيجته واحدة: رحيلك.

وعندما نزل خبر مأساة رحيلك كالصاعقة علي، كانت كل تلك المحاولات التي سعيت فيها لإقناعك بمثابة الخنجر الذي استقرت طعنته في منتصف القلب الذي أحبك.

ثم لم يكن يوما رحيلك مؤلما بقدر ما كانت تلك الطريقة مؤلمة وموجعة.

ولم تكن تلك الدموع التي ذرفتها ذات ليلة مؤلمة بقدر ما كانت نيّتي الصادقة مؤلمة وموجعة.

ولأنه مقدر لأشيائنا الجميلة الرحيل، جاءت طعنة رحيلك كوفاء لكونك الشيء الجميل في حياتي، حتى لو تعلق الأمر بكونك راحلة.

عزيزيتي الحاضرة الغائبة...

ولأن الحب هكذا دموع، دمعتك أبت أن تفارق عينيّ، في كل مرة تحاول فيها الخروج يحتضنها بؤبؤ عيني متغزلا بها

ومحتفيا بذلك تحت الكم الهائل من مطر الدموع.

تلك الدمعة ألفت المكان الذي تستوطنه، غير مبالية بكونها استعمار، لا هي تخرج وتريحني من عناء العذاب ولا أنت تعودين وتريحينني من عناء البكاء!

تلك الدمعة ألفت أن أكتب من أجلها في كل مرة، ألفت أن يدمعها قلمي في كل مرة، متناسية آلاف الدموع التي تستنزفها أترابها في سبيلها ولا تلك الشهقات التي تنتابني عندما أبدأ في خط ذكرياتها في شكل رسائل من سراب.

ولأنه مقدرللسراب أن يتلاشى وينفى غصبا من الذاكرة بمجرد أن تبصره العين، فالعين في السراب خادعة لكنها في الحب صادقة، ترى السراب ولكن الذاكرة تنفيه لأنه لا أساس لسراب تراه العين، تلك الذاكرة نفسها تحتوي العين حين تحب لأنها حين تحب تصدق وحين تصدق تدمع الرسائل.

ولأن دموعي في الحب كانت رسائل، كان الجميع يظن أني أثير الدراما حين أكتب هكذا، غير أنها في الحقيقة رسائل لكنها من سراب، الشخص المقصود فيها غاب واضمحل تماما مثل السراب.

فقيدتي...

أعلم أن أقدارنا قد كتبت قبل ميلادنا، وأن قدري كتب أن يكون الألم، مقدرلي أن أعيش هذا الألم ما حييت يا لورين، مقدرلي أن أرتوي كؤوس المرارة وأن أعيش سنوات من الحزن، أن أذوق كل أنواع وألوان العذاب والحَسرة، مقدرلي أن أعيش كل هذا الألم بعد رحيلك.

مشكلتنا يا لورين كانت في البدايات، إنها البداية، البداية تلك التي تكون دائمًا جميلة وسعيدة على عكس النهاية، البدايات تقودنا إلى طريق جميلة والنهاية تَسوقُنا إلى الهاوية والانهيار.

أحبَبتُكِ بِصدق ولكنها الحياة؛ الحياة التي تكون قاسية في كثير من الأحيان ولا تُعطينا ما نُريد أو ما نُحب!

«ذنب الحياة هو المشاعر... الحياة ليست مؤذية بذلك الحد الذي نعتقده، وحدها المشاعر من تؤذي يا لورين... وحدها»

يا لورين، لم فعلت بي كل هذا؟
أولم أحبك يوما ما؟
لا، لقد أحببتك بكل كياني
أحببتك حتى امتزجت بداخلي
أحببتك بين ثنايا روحي
دفنتك في أعماقي
أوهمت نفسي بالنسيان
لكنني أتذكرك في كل مرة
عند مرور سحابة
في كوب قهوة
عند أغنية سمعناها معا
على مقربة من بستان قطفنا وروده في يوم ذات حب
عند غروب شمس
عند شروق صبح
أحاول في كل مرة نسيانك

روحي تأبى ذلك

وددت لو أننا نلتقي من جديد، بعثت في نفسي أكسجين عودتك لتنقضي لهفتي وشوقي لرؤيتك

تعالي نلتقي

لن نفترق مجددا هذه المرة!

إنه لأمر محزن أن يمضي الحب هكذا

لأمر محزن أن ننسى أشخاصا قضينا معهم سنين الحب

تؤلمني فجوة بداخلي يا لورين

فجوة غيابك تؤلمني

أخبرتك ذات يوم أنك أجمل مصادفة منحها لي القدر، لست أدري كيف أصبحت أسوء الأقدار.

لم يكن أمر رحيلك مؤسفا بقدر ما كانت مؤلمة طريقة الرحيل؛ رحلت بتلك البساطة، بتلك السهولة، بذلك النسيان، لم يتطلب منك الأمر جهدا أو أي تفكير، كل ما في الأمر أنك قررت الرحيل ورحلت.

«الهزائم تأتي من المقربين»

حقا هزمتنا قلوبنا برغبة امتلاكها لأشياء لم يكتبها لها القدر.

هزمتنا المواقف التي منحناها عمقا وتفكيرا كثيرا، بينما كان الأمر يتطلب نظرة وتجاوزا.

هزمتنا الكلمات التي أهديناها إلى أشخاص رحلوا، بينما كان الأجدر بنا أن نواسي بها أنفسنا بعد رحيلهم.

هزمتنا تلك الحجج الواهية التي كانت قلوبنا تسعى لإقناع عقولنا بأنها أسباب حقيقية للغياب.

هزمنا التعب، هزمنا الليل، هزمنا السهر، هزمنا الفراق، هزمنا الفقد.

هزمتني يا لورين!

«ملعون من فعل بقلب كل هذا، من قتل الشغف، من أباد جيشا من الأحلام، من غطى قمر الآمال بسحابة أحزان... ملعون من أزهق روح إنسان».

لكن رغم كل هذا الغياب، ورغم أنّات التعب وآهات الرحيل، ما زلت أحس بأن شيئا سيحدث، لربما ستعودين اليوم، لعلك ستخونين الغياب ذات يوم وتعودين، أظن أنك ستعودين بعد يوم أو يومين، لا أظن أنك ستقوين على تحمل هذا الألم.

شيء ما سيحدث... وحدها الأيام كفيلة بكشفه.

***

الفصل الثالث: رسائل من سراب

" عالق أنا في خيبتي "

الجميع يتذكر ما حدث في الحادي عشر من أفريل عام 2018 حين سقطت طائرة عسكرية تحمل خيرة أبناء الجزائر الذين ضحوا بأنفسهم من أجل الوطن، رحمة الله عليهم.

عاش الجميع هذه اللحظات ثم ما لبثوا حتى بدأوا البحث عن حيثيات وأسباب السقوط المفاجئ للطائرة، لكن دون جدوى، فجميع من كان على متن الطائرة قد فارق الحياة. فلجؤوا في النهاية إلى الصندوق الأسود الموجود بالطائرة، الذي حمل لهم الحقيقة الصادقة والأسباب الحقيقية، وكشف لهم بالتفصيل ما جرى لحظة سقوط الطائرة.

كذلك نحن؛ إننا نحمل دائما رسائل تظل عالقة بداخلنا لا تتجرأ الأيام على محوها ولا حتى السنين، تظل راسخة في أعماق قلوبنا، تلك التي تحمل لحظاتنا الجميلة، وذكرياتنا الحزينة، وشعورنا الحقيقي الصادق، إنها تماما صندوق الروح الأسود.

تظل تلك الرسائل عالقة بين زحام الذكريات، مشكِّلة رسائل مغلفة بالحنين، هي مثل ذاكرة ثانية للإنسان.

لورين... بعد رحيلك لم أجد سوى قلما وبقايا أوراق رُحتُ أنسج على رفاتهما أشباه ذكريات، مستمتعا بتدوين خسائري الخسارة تلو الأخرى، حتى انقلبت الأمور رأسا على عقب ذات ليلة، تمردت عليَّ الأوراق رافضة حمل هذا الكم الهائل من الألم، وتوقف القلم عن ضخ مداد الذكريات، في ليلة المشهد الأخير، ليلة غاب فيها القمر وتسَيَّدَ الظلام الحالك قلب ليل داكن، ليل كان بطله «إيهاب»، أعلن من خلاله ولادة النهاية بعد مخاض عسير للذكريات.

الليلة الأولى بعد رحيلك

في اللحظة الأولى بكيت، أجهشت بالبكاء حتى انطفأت ملامحي، وفي الساعات التالية لرحيلك اختفت البسمة من ثغري. كانت الليلة الأولى طويلة جدا، مرّت على قلبي كقرن من السنين؛ أعدت قراءة رسائلنا القديمة وتسجيلاتك الصوتية، لأنهار... لم أكن أدري يوما بأننا سننتهي بتلك الطريقة!

أضع هاتفي على الطاولة ثم أعيد فتحه منتظرا رسالة منك، فأتذكر بأن كل شيء قد انتهى... انتهى إلى الأبد.

أتذكر...

في تلك الليلة نادتني أمي للعشاء، أخبرتها بأني لا أريد طعاما، حتى جاءت تلح علي بضرورة النهوض لتناول وجبة العشاء، ومع ذلك الألم الذي كنت أعانيه، انفجرت لا إراديا في وجهها صارخا: «أخبرتك بأني لا أريد»!

سكتت أمي حينها، بقيت تنظر إليّ مدة قصيرة ثم مضت.

قرأت في عينيها خيبة كبيرة. لست أدري كيف لكنها المرة الأولى التي أصرخ في وجهها بتلك الطريقة، تلك الطريقة الغريبة التي لم تستوعبها أمي.

في تلك الليلة جاء أخير الصغير يمازحني كالعادة؛ فأنا دائما ما كنت أمازحه قبل النوم، لكنني صرخت في وجهه أيضا، قبل أن يأتي خلفي يضربني على كتفي بيده الصغيرة ضربة خفيفة.

لم يكتفِ بالنظر إلي كما فعلت أمي بل ضربني ولاذ بالفرار.

«حقا في الأم شيء لا يعوض؛ الأم هي الحب الحقيقي»

في تلك الليلة ناداني أبي لإحضار كوب ماء له لكني لم أفعل، تركته ينادي وخرجت!

في تلك الليلة توضأت بدموعي وصليت من أجل أن تعودي.

خرجت بعدها إلى الشارع، كان ذلك اليوم ماطرا، الليل بدا متغيرا كثيرا، بدا أكثر سوداوية وأشد حُلْكَة، اختفى قمر الحب الذي كان يضيء لياليا.

بدا لي أنني وحيد في حينا، وحيد في هذا العالم البائس.

ابتعدت عن المنزل، ذهبت إلى مكان خالٍ من السكان، وتحت تلك الكمية الهائلة من الأمطار التي تتهاطل خلعت معطفي الذي كنت أرتديه وافترشته على أرض مغمورة بالمياه، استلقيت عليه وصرخت بأعلى صوتي:

«يا لله... لم يبق لي إلا أنت... يا الله... هذه الروح هي لك فداء... تولاها يا الله... هذه الروح باتت عقيمة عن إنجاب السعادة... باتت تسكن جسدا مُنْهَدًّا يضخ دماءه قلب على وشك الانتهاء... هذه الروح هي لك توفاها يا لله».

ثم أصبت بهستيريا ضحك، بدأت أضحك كثيرا وبشدة، حتى أخرجت من جيب سراويلي منديلا ورقيا مسحت به جبينا لطخته حرارة الفقد بقطرات المطر الباردة.

أصبت بنوبة عطاس شديدة، واصلت الضحك بشدة ودون سبب، قبل أن تتحول تلك الضحكات إلى نوبات حزن حادة ثم إلى شهقات من الدموع، كأن تلك الدموع تعلم أن

هناك شيئا في القلب على قيد الانتزاع، تعلم أن هناك شيئا ما ينتزع من الأحشاء دون رجعة، كأن الروح تفارق الجسد.

تبللت كثيرا، كانت الأمطار تهطل بغزارة لكني لن أكترث لذلك، أمسح دموعي المختلطة بقطرات المطر في كل مرة، استلقيت مرة أخرى على معطف يغرق بالمياه ووضعت رأسي عليه... ثم غفوت!

لم أكن أدري ماذا حدث في تلك الليلة لكني تأذيت يا لورين... لكنني بكيت!

بكيت لأنه الفعل الوحيد الذي كان بإمكاني فعله حينها.

«بكت السماء لأنها لم تعد قادرة على حمل ثقل الغيوم، وبكيت أنا لأنني لم أستطع تحمل ثقل الألم، بكيت لأنك الوحيدة التي ظننتها ستبقى وتخلّت»

***

في اليوم الثاني لرحيلك

أشرقت شمس اليوم بدونك كما غربت البارحة بدونك أيضا.

كجثة منهدّة ملقاة على مقبرة الحنين أنتظر قدومك، أنتظر شبه عودة بين أطياف الراحلين.

فحصني الطبيب بعدما ذهبت إليه مدركا أنني على وشك الانتهاء، وصف لي مجموعة من الأدوية، توجهت صوب الصيدلية، أحضرت لي الموظفة عددا من الأدوية، شد انتباهي أن عددها لم يكن نفس العدد المسجل على الوصفة ، يبدو أن هناك دواء ناقص لم تحضره الموظفة!

أخبرتها: هناك دواء ناقص، ناوليني إياه.

تبتسم الموظفة: لا العدد مكتمل. أتعلم؟ لقد سجل لك الطبيب دواء لا يمكن أن أحضره لك، بل لا يمكن أن تجده حتى لو طفت من أجله العالم، لكنه أنجع طرق الشفاء! لقد كتب لك: «اعتن بقبلك جيدا».

لم أكن أبدا مريضا يا لورين؛ لقد كان المرض في قلبي.

في صباح هذا اليوم تلبدت السماء وحجبت السحب ضوء الشمس، أنشدت الطيور تهليل الصباح وغردت بطريقة غريبة غير تلك المعتادة، وأنشد الفراق ترنيمة الوداع، قد كان المشهد الأخير.

***

في الثاني عشر من نوفمبر

لقد اقترب عيد ميلادي يا لورين، تبقّى يومان، لكنني لن أحتفل به هذه المرة، لن أحتفل كالسابق، لن أشعل الشموع، من سيحضر الكعكة؟ من سيطفئ تلك الشموع؟ من سيهنئني بعيد ميلادي؟ من سيفعل ما كنت تفعلينه في العام الماضي؟!

لقد كبرت عاما يا لورين... في هذا اليوم ولدت أنا.

إلى الشمس، إلى القمر، إلى النجوم، إلى الجميع دونك:

اليوم عيد ميلادي... لكن هل تعلمين ما الأكثر إيلاما يا لورين!

لقد كتبوا في هويتي أن اليوم الذي تركتني فيه في كل عيد ميلاد ستتركينني مرة أخرى؟

أقسمت أني لن أحتفل! هل يوجد من يحتفل بعيد آلامه؟

لا يوجد.

هل هو مريض؟!

كلا لن أحتفل، لن أحتفل يا لورين، لكنني مريض... لكنني مريض.

سيكون عيد ميلادي حزينا، سأكون في عيدي وحيدا!

هكذا قالوا.

أحببت فتاة يا لورين... لقد ملأت غيابك... سأتزوج بها.

ستصبح لدي ابنة... أحبها كثيرا... كثيرا... لكن لا أستطيع أن أقول لها... لا أعرف لماذا؟ ربما أخجل... لا أستطيع التكلم.

أكتب فقط... الكتابة لم تعد تجدي نفعا،لا أريد أن أكتب، سأبوح لها.

لكن أتعلمين ما هو الشيء المؤلم؟ محبوبتي مثلك؛ باردة كروحك، محبوبتي اسمها الوحدة. ابنتها؟ أسميتها الذكرى.

أمي ستطفئ الأضواء، سأنهي كلامي، سأغفو... أتمنى أن تزوريني في أحلامي الليلة... سأغمض عينيّ على بقاياك... لعلّي ألتقيك!

ولكن قبل ذلك، دعيني أسألك سؤالا: هل فعلا أحببتني يوما؟

***

منتصف النهار من أحد الأيام

يا لَهذا الشعور الغريب الذي يعتريني!

لم أكن أدري أنه يمكن يحمل منتصف النهار شعور منتصف الليل؛ نهاري يشتاق إليك كَلَيْلِي.

أتألفين شعور الوحدة مثلي؟ ألا يمكنك أن تستشعري بقايا شخص من بعيد هناك ينتظرك؟

ألا يمكنك أن تسلُكي طريقا نهايته أنا!

حتى الانتظار مل من كوني أنتظر، روحي كرهت عناء الانتظار، روحي تود أن تلفظ آخر أنفاسها، روحي كرهت من كونها أبا وفيا لطفل عاق، كرهت من حمل نبضات قلب مهترئ.

قلب يود لو ينتظرك أكثر، قلب لا يمكن أن ينساك، يعتقد أنك ستعودين، ربما اليوم أو بعد عشر سنوات، ربما ستفعلينها ذات مرة، فقط حينها تكونين أنت قد سلكت طريق النسيان وأكون أنا قد أصبت بالزهايمر.

***

في ليلة الواحد والثلاثين ديسمبر
إلى الفاتح من جانفي

بضع دقائق وينتهي هذا العام.

سيشرق عام جديد بدونك كما غربت شمس سابقه بدونك أيضا.

لا أظن أن هذا العام سينتهي، لقد كان عاما مليئا بالخيبات، عاما مليئا بالراحلين.

أنا هنا على سريري أنظر إلى تلك الصورة التي جمعتنا ذات لقاء، والتي ما زالت أحتفظ بها،

هاته الصورة التي التقطناها معا في إحدى الأيام التي جمعتنا، من أحب الصور إلى قلبي، رفقة أعز شخص عندي على الإطلاق، أنظر إليها بشكل مشوش، عيناي تكادان تغرقانني من فرط البكاء!

عقارب الساعة تتعانق عند الساعة الصفر.

عام جديد لن أطلب فيه من شيئا سوى أن يجمعني بك.

لن أطلب من الله شيئا في هذه السنة الجديدة سواك.

«يا لله... دُلّني عليها ودُلّها عليّ... فنلتقي»

لورين:

أفتقدك في ليلة العام الجديد، أنا هنا... فهل تفتقدينني؟

***

ذات انتظار

جالس أنا هنا أنظر إلى المرآة

لأُفاجأ ببقع كبيرة من الهالات السوداء تظهر بوضوح في مقدمة عينيّ، يبدو أنها إحدى محاولات الزمن لتذكيري بأن زمن الانتظار قد انتهى.

فوجئت...

فأنا لا زلت في مرحلة الشباب

مرحلة يفترض أن يعيشها المرء بكامل سعادته، مرحلة يفترض أنها لا تسمح للهالات بالتجمع بهذا الشكل.

تأملت نفسي في المرآة... انحدرت دمعة التأسف على ما آلت إليه هذه الروح

مسحتها، مسحت خيبة أخرى تُضرم نارها داخل صدري

هاته المرآة هي نفسها التي احتضنت فيها نفسي عند أول لقاء، أنا الآن أمسح بها دموع شيب الانتظار

يا لورين لقد أصبحت شيخا بحبك.

«ربما في النهاية لن نأخذ شيئا من ربيع الماضي ولا من سعادته سوى أشباح ذكريات روح جاثية شيء باهت مشوش وبكاء»

***

في الليلة التي توفي فيها جدي رحمة الله عليه

يبدو أن المصائب لا تأتي فرادى

يبدو أن نصيبي في هاته الحياة قد كتب منذ ولادتي أن يكون الفقدان.

الثاني عشر من جوان روح جدي الطاهرة تنتقل إلى مثواها الأخير، روح جدي تأبى أن تبقى بجانبي كما ألفت أن تفعل.

الثاني عشر من جوان جدي يلفظ أنفاسه الأخيرة أمام عينيّ، لم يسعني فعل أي شيء سوى أن أؤمن بقضاء الله.

آمنت ربي بقضائك وقدرك

في تلك الليلة بالضبط وقبل وفاته أتذكر أنني ناديته فيها: «جدي».

لم يتكلم، لم يصدر أي صوت كالسابق، وأول مرة فقط بقي ينظر إلي أبكم اللسان وكأنه يقول لي بعينيه: وداعا! الدنيا التي عاركت الأيام من أجلها هي لك.

حينها شاء الله أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، أن يبدأ حياة جديدة أخرى بعيدا عن معترك الدنيا.

كفّنت جدي رأيته بلباس أبيض أول وآخر مرة، ودعته بجنازة أليمة رميت فوقه التراب رششت فوق قبره ملح الأيام

لن يكون هناك لقاء بيننا في الدنيا يا جدي

رحمك الله، ألف رحمة ونور تنزلان على قبرك.

يا لورين

ألا يمكنك ملاحظة كل هذا الألم الذي أعيشه؟

تعالي يا لورين تعالي قاسميني كل هذا التعب، تعالي شاركيني الألم، قاسميني مرارة الأيام،

تعالي لا زلت بانتظارك!

***

منتصف الليل من إحدى الليالي:

إلى لورين صغيرتي

إنه منتصف الليل حين يتساوى الألم والحنين. لم أجد لأعبر في هذه الليلة عن حبي لك سوى قلم وورقة

أتعلمين:

إنني في كل مرة أشتاق إليك أشيع جنازة حنينك على ورقة تبللها دموع قلم؟

بطلتي:

إن تلك الرغبة النابعة من العقل تدفعني للكتابة عنك...

صدقيني:

أنا لا أحب أن ينعتني الناس بالكاتب، لا يهمني ذلك إطلاقا

أنا من ثُلة البشر المستغنية عن الناس... أن لا أشارك الناس ما أفعل!

لكن ككل مرة، تفضحني تلك الرغبة في كل مرة...

رغبة أن أصل إليك تجعلني الطرف المهزوم بين قلب وعقل أو ربما ليل وقلم...

فبعد أن يفشل القلب في تحمل نبضات زخم المشاعر، يأتي العقل ليصوغها في مجموعة حروف ناطقة يرتبها في شكل رسائل حزينة يدمعها حبر ذكريات...

أن أكون أنا الحبر والرسائل، مجموعة ذكريات، وتلك العين الدامعة ما هي في الحقيقة إلا تجسيد لحضور غيابك.

أن تكوني غائبة في الحقيقة، حاضرة في كوني أكتب... تلك أبشع أنواع اللقاء.

«راغب بلقائك... مهزوم بفراقك»

الساعة الصفر من ليلة باردة

لا أستطيع وصف ما بداخلي الآن بدقة، أنا ضحية رماد ذكريات

كلما أربط شِراع النسيان وأنطلق، كلما تلفظني بحور الذكريات على شواطئ الماضي

«كانت كل سفن النسيان تغرق في بحر الذكريات»

لورين:

إن القطعة الجميلة الموجودة على يسار صدري، التي أحبتك يوما ما تريد أن تستريح وتتركني في راحة أبدية. بدأت أشعر بفقدانها، إنها على وشك أن تلفظ آخر دقاتها .

***

ذات نسيان

إن الحياة التي نعيشها تستلزم الكثير من النسيان، لا يجب أن نبقى تحت سلطة ذكريات ماضٍ أليم، ربما ربيع مزهر قادم سيحمل معه ألف اعتذار على ما فعلته بنا نكبات الماضي.

استيقظت ذات صباح على أمل النسيان. عزمت حذف كل محادثاتنا... حذف كل شيء يجمعني بك.

حملت صورتك التي أخبئها منذ زمن طويل. ذهبت إلى أرض خالية، حفرت حفرة صغيرة وضعت صورتك فيها... دفنتها!

سندفنهم وهم أحياء رغما عنا... سننتصر.

ضممتها للتراب، دفنتها وكتبت فوقها:

«هذا ليس شخصا إنه قلب تفوح منه رائحة الرحيل»

ثم عدت إلى المنزل

لحظات قليلة يبدو أنني لم أستوعب ماذا فعلت.

نظرت إلى الأعلى عانقني الندم، تحركت بداخلي جذوة مشاعر.

سارعت إلى ذلك المكان، استخرجت صورتك، احتضنتها وبكيت!

لورين لا يليق بحبك الإعدام.

يا لورين أحبك اليوم وغدا...

***

في الذكرى الأولى لرحيلك

وكعادتي استيقظت من نومي أراجع ذكرياتي بعد أن انتزعت لها مكانا في سقف غرفتي لأتذكرها كل صباح وفي كل نهاية يوم، قد يعتبره البعض بداية يوم جديد.

عزيزتي الراحلة: اليوم نكمل سويا السنة الأولى من فراقنا. اليوم يا لورين هو الذكرى الأولى لرحيلك.

في هذا اليوم هزّني الشوق لزيارة المكان الذي كان يجمعنا سويا، إلى ذلك المكان الذي كان شاهدا على طفولة حب كتب له أن ينتهي بعد أن كان أبدي الشعور.

ها هي قدمي تطأ أرض المكان الذي اغتال فلسطين قلبي. هدوء تام، إحساس غريب كشعور شخص بعيد عن وطنه، كطفل صغير ضلت به الطريق بعيدا عن أمه. هبت عليّ رياح الحنين أججت نيران الشوق بداخلي. وقفت عند الأشجار التي قطفنا منها التوت سويا .

عند تلك الأزقة التي مشينا فيها، ذلك الشباك الذي كنا نطل عليه، ذلك الكرسي، الكرسي؟ لا زال على حاله يا لورين. شجرة الياسمين التي تمده بالظل لا زالت على حالها، بائع الحلوى...

كل شيء على حاله لم يتغير إلا أنت.

لقد بحثت عنك داخل الحي، فتشت صفحات الذكريات، طرقت أبواب الماضي، هرولت باحثا عنك لكني لم أجدك!

عانقتني مشاعر الماضي. هنا تغزلت بروحك الغائبة، هنا كتبت من أجلك ألف سطر، ألف قصيدة، ألف شعر، هنا سجدت سجدة شكرا على أول لقاء بيننا، هنا ألبست روحي قميص السعادة...

حقا لقد مر زمن طويل تغير فيه كل شيء

بالأمس التقينا في هذا المكان، اليوم أشيع ذكرى الرحيل. لورين أنا الآن هنا أثرثر بأغاني الفراق، أتحسس رائحة عطرك، أبحث عن شيء يجمعني بك، أكتب من أجلك رواية حزينة سوداء. هنا اعتدت دائما أن أخبرك الأشياء التي تحبينها، دعيني الآن أخبرك شيئا في غيابك:

أ يغدو الحب بعدا يا لورين؟

مؤلمة هي الذكريات؛ تجعلنا تحت حضرة الحنين لأشخاص رحلوا لكن كلماتهم وأرواحهم وضحكاتهم لا زالت عالقة بين ثنايا القلب.

مؤلمة متمردة هي الحياة؛ تجعلهم يمرون عابرين لكنهم يملؤون القلب، يحتلون الروح، يتركوننا للشوق، يتركوننا حيث الحنين القارس لهم، يأكلنا شوق لهم... ظالمة هي الحياة

- لماذا نحِنُّ لأماكن بعينها دون أخرى رغم أفضلية الأخرى عليها في أغلب الأحيان؟

- ربما لأن حنينا للأشخاص مرتبط بعمق ما عشناه من شعور في تلك الأماكن.

***

ذات حلم

لورين يا من أصبحت مهووسا بطيفك حتى في الأحلام
كانت الليلة أشبه بالكابوس
لقد جئتني الليلة في المنام يا لورين، لكن هذه المرة لم تكوني وحدك كالعادة لقد كنت برفقة رجل رأيتك جانبه
لقد كنت بفستان زفاف!
أشبه بكابوس!
كيف تتجرئين على فعل ذلك؟
كيف تتركينني بعدما تحملنا أعباء الحياة سويا؟
أعلم أن هذا كان مجرد حلم لكنه أفزعني حد الغضب، أتمنى أن لا تصير الحقيقة هكذا.
أتمنى أن لا تكون الحقيقة كذلك.
لورين ... أ تعلمين؟ أخاف!
أخاف أن يأخذك مني رجل آخر لا يحبك لكنه يتظاهر بذلك
يراك امرأة عادية تماما لا تجذبه قسمات وجهك ولا ضحكتك المميزة تلك... لا يتأمل صورتك كثيرا... لا يعيد سماع تسجيل صوتي فقط لأن فيه جزءا من صوتك... يتجاهل رسائلك واهتمامك... لا يراك طفلة صغيرة كما كنت أراك... لا يلاعب الطفل الصغير الذي يسكنك... يتجاهل الطفولية البريئة التي كنت أحبها...

لورين:

حتى وإن اخترت الرحيل للأبد فتذكري أن نصيبك من الحب في هذا العالم هو أنا.

***

بعد مرور مئة خيبة على رحيلك

الواحدة والنصف ليلا والكثير من.....

عزيزتي الحاضرة الغائبة:

لقد تشابهت الأيام منذ رحيلك. لم يعد شيء كالسابق

نهار بطيء... ليل طويل... برودة سوداء لا أكاد أرى أي بريق للأمل. لم يعد هناك أي حلم أود تحقيقه ولا مستقبل أفكر به...

يا من تركتني وحيدا بعد كل الذي كان بيننا:

أعلم أنك تعلمين بأنني لا أشتاق... لكنني أشتاق

أعلم انك تعلمين بأني لا أحبك... لكنني أحبك

يقولون لي: «ماذا فعلت بك تلك الغائبة حتى أصبحت منهكا لهذا الحد؟»

سأخبرهم بأنني أحببتك وتركتني... سأخبرهم بأنك خائنة

سأنعتك بالخائنة أمامهم

كلا كلا... لا لا... سأخبرهم بأنك بطلة من أبطال الأفلام الخيالية

أنت لست غائبة... لم ترحلي... أنت حاضرة هنا حيث قلبي

بارعة في كل شيء... تتظاهرين بالغياب بينما تحتلين أرض قلبي

سأخبرهم بأنك ممثلة سينمائية بارعة

تجيدين التمثيل، تجيدين التظاهر، تجيدين التجاهل، تجيدين الغياب، تجيدين كل ما هو قاسٍ تجاهي.

حتى إذا سألوني عن سبب هذا الوجع سأخبرهم بأنه مرض يسكن أحشائي

تسألين أي مرض؟

مرض رحيلك يا حلوة

كنت لا تكفين عن الحديث عن مواضيع الوفاء ومحاضرات الإخلاص ودروس الحب... أين كل تلك الدروس؟

تصفين المرأة دوما بأنها رقيقة عاطفية لا تستطيع الخيانة، تنهالين عليّ باللوم كلما سمعت عن خيانة رجل.

- يا بنات حواء هل أنتن رمز للوفاء وفقط؟

- لا أعلم الإجابة بالضبط لكن لورين تركتني!

لورين كانت تخبرني بأنها ستبقى بجانبي، بأنها ستختارني رغم كل شيء

كنت رائعة في كل شيء تصرفاتك، كلماتك... أبدعت العزف بنغماتك. صدقتك حينها لم أكن أفقه في لغة التمثيل شيئا، وقعت ضحية براعتك اللامتناهية في الأداء. أهنئك على إخراج المشهد الأخير لقد كان سعيدا بالنسبة لك، حزينا بالنسبة لي.

«ذلك الذي يخبرك بأنه سيبقى بجانبك سيتركك عند أول فرصة تتاح له، سيتركك لمجرد أنه لمح نقطة من نور تشع في الأفق... أنت معرض للفقد في أي وقت وتحت أي ظرف فقط انتظر المواقف».

المشهد الأخير «يناير»

إلى لورين... تلك التي أحببتها
إلى بلقيس تلك التي لم ولن تكون
إلى صديقي إيهاب
إلى إسراء.. إلى الصغيرة تاليا.. إلى غيث.. إليّ أنا...
إلى هاته الأوراق التي سئمتْ حمل هذا الكم الهائل من الرسائل الحزينة
إلى هذا القلم الذي بلغ حبره منتهاه
إلى الصبر الغبي، إلى الانتظار المجحف، إلى الحب الزائف، إلى مرارة الفقد، إلى حرارة الشوق، إلى ألغام الذكريات، إلى آلام الليل...
إليكم جميعا دون استثناء...
الساعة الحادية عشر من منتصف ليل مظلم:
على شفى خطوة من النسيان
كعادتي أنا مستلقٍ على سريري في ليلة هادئة تعتريها فوضى داخل عقلٍ مستشعر لذكريات الماضي، متصور لملامح المستقبل...
فجأة يرن هاتفي... آه إنها مدة طويلة لم أسمع فيها رنين هاتفي، تقريبا منذ رحيل لورين. أصبحت شابا منعزلا أتحاشى المحادثات ولا تستهويني حشود الجماعات... حتى أصدقائي احترموا نفسيتي المنعزلة لم يعد بوسع أحدهم الاتصال بي.

لكن يبدو أن أحدهم يفتقدني اليوم
ألقي نظرة على الهاتف.. فإذا به صديقي إيهاب
تُرى لماذا يتصل بي إيهاب في هذا الوقت المتأخر من الليل؟
ليس من عاداته أن يتصل بي في مثل هذا الوقت
ثم ما لبثت طويلا حتى أجبته حالا:
- مرحبا إيهاب كيف حالك صديقي؟
- أهلا بك يا صديقي... بخير والحمد لله وأنت كيف حالك؟ خاصة في الأيام الأخيرة بعد رحيل لورين!
- رحيلها كان أمرا حزينا للغاية لكنني الآن بخير والحمد لله.
- أعلم ذلك، إنها الحياة... تجعل في دروبنا عثرات يجب أن تجاوزها، لا يجب أن نبقى مكبَّلين بأصفاد الماضي، ثمَّة أشياء تلوح لنا من بعيد هناك في الأفق لربما سعادة الحاضر وجموحه.
- أدرك ذلك يا صديقي... مرت علي أيام عسيرة تعبت فيها كثيرا كنت على وشك الانهيار لكنني بقيت متمسكا بشظايا من أمل، تحملت أشياء كثيرة، واصلت مسير الكفاح والنضال، جعلت التحدي نصب عينيّ، بنيت من بقايا الندب طريقا لبلوغ سعادة الحاضر، ثمة مواقف استدعتني للبكاء، بكيت فيها!
كانت رغبتي في الهروب من هذا العالم تزداد يوما بعد يوم...
حقا مرت الأيام الأخيرة عصيبة، مرت وكأنها النار ترمينا بجمراتها. ولكنها مضت وهنا تكمن جمالية الحياة، إنها تمضي دون أن تلتفت، لأحد لا بد لفجر باسم ليل حالك. الألم جزء

من سعادة الحياة.

- أحسنت يا صديقي... فعلا... النسيان شيء مؤلم للغاية لكن ضروري في بعض الأحيان.

لكن أتعلم!

وددت إخبارك بشيء حول لورين، أعلم أن هذا الأمر سيجعلك حزينا، لكن...

- لورين! ما بها؟ هيا تفضل!

- محبوبتك السابقة لورين تمت خطبتها وزُفت إلى رجل آخر وغدا هو حفل زفافها.

«بدايات جميلة.. نهايات فضيعة.. الحياة ميزان ظالم»

بالأمس إيهاب يتصل بي ليخبرني أن لورين تود محادثتك تود لقاءك... يخبرني أن لورين ستكون ملكك الأبدي. هو نفسه الآن يتصل بي يخبرني أن لورين قد ضاعت، قد رحلت لا مجال لعودتها... يخبرني أن لورين ستكون فُقدك الأبدي.

شعرت حينها أن جسدي قد توقف لحظة، توقفت أنا معه للحظات... توقف كل شيء...

يا الله لم يعد بوسعي تحمل كل هذا الألم!

تذكرت حينها الليالي التي توسدت فيها دموع الألم، ونمت فيها على جمرات الخيبة المحرقة... الليالي التي أكل فيها الخذلان روحي ونهشت الذكريات قلبي...

لحظتها أغلقت هاتفا عجز أن يوصل ولو رسالة من آلاف رسائل الحنين، وأغمضت عينا تستنجد طوارئ النسيان بعد أن هاجت محيطات الدموع، وضعت رأسي على وسادة مضرجة بالدموع، لم أدرِ حينها كيف لقطرات ماء من دمع حب أن

تجعلني محطما هكذا؟ وغفوت!

«كل الآلام التي تعانيها الآن لا يمكن أن تصل إلى ألم الفقد الأبدي»

استيقظت صباحا بعد ليلة مريرة..

إنه يوم مختلف..

الخامس من يناير... اليوم عيد زفافك يا لورين

اليوم تزفين إلى رجل آخر وتتركينني هنا وحيدا

اليوم عيد السعادة بالنسبة لك يا لورين

عيد الألم بالنسبة لي

في أحد أيام ديسمبر الماطرة... من العام الماضي

عند مولد القمر لحظة تشييع جنازة الغروب... من العام الماضي

عندما احتفلت النجوم بذكرى الميلاد... من العام الماضي

في يوم مشابه لهذا... من العام الماضي

حينها كان كل شيء ممكنا

كانت الأحلام ممكنة

كانت الآمال مفرحة

كنت أنا بقربك... كنت أنت ممكنة

الأيام جميلة... السعادة هنا تنام بحضني

ما أشبه الليلة بالبارحة!

كان حينها الفستان وخاتم الزفاف والتاج الأرجواني مصيرا متعلقا بمدى سعيي إليهم...

وها هو يأتي اليوم... في أحد يناير المظلمة

عند غروب الشمس

عند شروق أحزان الليل
الأحلام مستحيلة... السعادة تتلاشى...
رصاصات الألم تدوي
أنتِ هناك في الأمام رفقة شخصك المفضل... أنا هنا في الأخير
دخلت متسللا بين الحضور
جئت لأراك بالفستان الأبيض وخاتم الزفاف والتاج الأرجواني
جئت معزيا على وفاة حب أقسمت يوما أنه لن يموت
جئت لأشيع جنازة اللقاء الأخير بينا
لا زلت تبتسمين كعادتك... كيف لا وأنت في حفل زفافك وبرفقة شخصك المفضل؟
لقد مرّ زمن طويل يا لورين... لا أعلم إن كنت الآن أشغل تفكيرك كما تسرقين أنت نبضي الآن؟
«اشتقت إليك» كيف تقال بلغة الوداع!
اشتقت إليك بين أصوات نغم الناي، بين أصوات زقزقة العصافيروترانيم الصبح الأولى، بين نداءات القادمين وتلويحات الراحلين، بين صمت الأفواه وصخب الأفكار...
«إفلاس في الكلمات بينما ثراء موحش للشعور»
لورين أنا في الأخير ألا يمكنك رؤيتي؟
دعك مني على كل حال أنا مجرد شخص عابر فقط جاء لرؤيتك آخر مرة، مجرد شخص تسلل بين الحضور لمشاهدة سعادة زفافك، لا تهتمي لي، لن أحدث أي فوضى داخل القاعة، لن أنادي باسمك، لن ألوح لك، لن أعاتبك على فعل كذا وكذا...

«ثمة مشاعر تأخذك إلى أماكن لا تناسب وجودك، لا تناسب كيانك... القلب يسعى دائما لامتلاك أشياء يعانده فيها القدر»

أنت جميلة كعادتك؛ ابتسامتك، فستانك، لون أحمر الشفاه، تسريحة شعرك، طريقة جلوسك، مشيتك، رقصاتك الجميلة... ساحرة...

كعادتك

لورين أتعلمين!

أحبك، أحبك الليلة كما كنت أفعل كل ليلة، أنظر إليك اليوم بنفس اللهفة التي كنت أراك بها سابقا، لا زلت أراك عالمي

ارفعي رأسك أنا هنا في الأخير، انظري إليّ، اخترقي بنظراتك حدود عينيّ، حدقي في هاته الروح المهترئة.

في لياليا الجميلة كنت أنام على أنغام كلماتك حتى عندما نتشاجر كنت أرغم نفسي على المقاومة من أجلك، في كل يوم تكونين السبب الوحيدلأفتح عيني، في خضم الحرب أنت نصري الأعظم

أما اليوم في ليلتي العصيبة هاته على وقع آهات الرحيل كيف سأرغم نفسي على المقاومة؟ متى سيأتي الصباح؟ هل سأفتح عيني؟ في خضم السعادة التي تعتري حفل زفافك أنت دمعتي الوحيدة

تجمّع الألم داخلي، عجزلساني عن لفظ كلمات الوداع، لا أود توديعك يا لورين، خائف من ليلة أبدأ فيها بنسيانك...

«أن تخاف نسيان أحدهم.. تلك أسمى مراحل الحب»

الحروف تتجمع داخل حلقي لا لساني ينطقها ويريحني عناء العذاب ولا قلبي يتجاوزها ويمنحها حقها الطبيعي من النسيان

تصدمني الأحداث لمرات ومرات، تتمرد أفكاري عليّ، أيعقل أن يسرق حاضرنا مستقبلنا الذي سطرناه سويا؟ أم أن الحاضر رأى أن زهرتك ستفتح في خضم آهات حاضري؟ أين زمان الماضي الممطر؟

لورين يا من جعلتني مجنونا بحبك... أتعلمين أود سرقة يدك اليسرى تلك؟ أود لو أسرق بِنصَر يدك اليسرى لأضع عليه خاتما أسترد به صغيرتي الراحلة.

تعالي يا لورين داهميني، ضميني... تعالي لأضع يديّ المنتصبتين بقطرات البؤس على قلبك الفتي

تعالي قاسميني تعب الأيام، شاركيني الألم الذي سببته لي بعدما رحلت وتركتني وحيدا أمام هذه الغصات

التفتي إلي، تعالي جففي أثر الدموع من خديّ

الأيام التي أخبرتك سابقا أنها جميلة برفقتك أمست جحيما بعد رحيلك

نهاري بات أسودَ، ليلي بات ممطرا من فرط البكاء...

لا وجود لحياة داخل هذا الجسد... جسد انتهت فيه كل أسباب الحياة، لا أرى فيه سوى قلب يضخ دماء العجز ودموع الوهن.

تعالي... لا يمكنني أن أنساك، لا يمكنك أن تتركيني، تعالي! تفاصيلك تحتل بؤبؤ عينيّ...

أخبرتك سابقا أنني سأبقى أحبك... سأبقى وفيًّا لعهدي سأحبك حتى يشيع هذا القلب إلى مثواه الأخير، لا أريد أن تكون هاته الليلة قبر مثواه.

سأبقى أحبك لآخر نفس لكنني خائف، خائف يا لورين...

خائف من أن يصبح حبك عقدة بداخلي، أن يشكل عقدا يعسر عليها أن تنحل تحت هذا الكم الهائل من الألم.

أصبحت خائفا من أن أصبح مجنونا فاقدا للوعي بسبب حبك، أن أصبح مهووسا بطيفك

حبك يا لورين جعلني محبا للحياة، جعلني طفلا صغيرا يجري بين أحضان الأيام، كنت الوطن الذي لا يخان... أصبحت المنفى.

«لك في قلبي فردوس من الحب» لا أريد رؤية هذا الكم الهائل من الحب يتلاشى في ليلة واحدة، لا أحتمل رؤيتك تحتضرين بين دقات قلبي يا لورين.

شخصك المفضل أراه من بعيد لا يبتسم كثيرا! لماذا؟ لماذا؟

لقد فازبك، أليس من الأولى أن يقيم الدنيا فرحا من أجلك؟ أليس من الأولى أن تشرق تقاسيم السعادة على وجهه؟

أراه لا يمسك يدك بقوة! أراه لا يمسك يدك بشدة كما كنت أفعل أنا! أليس خائفا من رحيلك؟

علميه يا لورين، علميه أن يحبك كما أحببتك أنا، علميه أن يسعدك مثلي، أن يؤخر انشغالاته للتفرغ لك، أن ينسى حوائج الدنيا فقط من أجل ابتسامتك؟ أن يراك عالمه...

علميه كيف يترك من أجلك رسالة صباحية كل يوم، أن يشاركك لحظاتك السعيدة منها والحزينة، أن يتغزل بعينيك في قصيدة قبانية، أن يهديك بين الحين والآخر هدية مغلفة بغلاف أحمر مكتوب فوقها «أحبك» علميه أن لا يكون قاسيا معك، أن يكون حنونا من أجلك، أن يستمتع بالحياة بجانبك، علميه كيف يقرأ حالتك من نظرة واحدة كما كنت أفعل أنا، أن يعرف ما تخفيه من نبرة صوتك، أن يميز بين ضحكتك الحقيقية والمصطنعة، أخبريه أنك فتاة تعشقين العناد، أنك تحبين شرب القهوة، أنك تفضلين اللون الأزرق على باقي الألوان، أنك تخافين الظلام وتحبين الصباح... علميه كيف يكون أنا كي لا تحني إلي، كي لا تشتاقي إلي فأفسد حينها لحظاتك معه.

أما أنا فلا تأبهي لأمري، مجرد شخص كان شاهدا على آخر لقاء، مجرد شخص شيع مشاعر عمياء ظلت وفية لك وبقيت تنتظرك حتى بعد رحيلك، مجرد شخص وارى قلبه الثرى، قلب هتف باسمك، عشق روحك، أراد أن تكون الحياة بجانبك... هو الآن ينظر إليك بنظرات مهترئة رثة أخيرة، كأنه يعلم أن اللقاء بك مرة أخرى سيكون مستحيلا هذه المرة.

«يبكي الأشخاص كثيرا بعد فقدانهم لمن أحبوا؛ لأنهم فقدوا قلوبهم في لحظة الوداع تلك، وكل مواساة نوجهها إليهم تبقى عقيمة غير قادرة على إرجاع شخص راحل، فالمواساة في نظرهم محاولة فاشلة لاستعادة شخص مضى دون رجعة»

ولأن «الأشياء الجميلة لا تدوم» رحلت يا لورين كما ترحل كل الأشياء الجميلة في حياتي... رحلت تاركة وراءك خراب شخص كان ذنبه قلبا صادقا أبى إلا أن يظل وفيا لك، قلبا

أحبك بكامل شغفه، قلبا تحمل عنادك وغيرتك ومزاجيتك حتى غيابك في بعض المرات.

ولأن الحب بعد الغياب انتظار... ظل ذلك القلب المنهد ينتظر عودتك كل ليلة، ظل متمسكا بأشباه مشاعر عاش من خلالها آهات الألم، وشرب من كؤوس الخذلان إلى أن دقت ساعة المشهد الأخير معلنة ولادة النهاية، نهاية كانت حزينة بما يكفي تجرع فيها جحيم الفقدان الأبدي مدركا بعدها نهاية قصة كان البطل المهزوم فيها... ودون دراية منه كانت تلك اللحظات بوادرَ لإنجاب طفل عاق كثير البكاء، طفل صغير أنجبه رحم الألم، كفله الحنين وربته الذكريات، طفل سماه فيما بعد:

«لأن إرثك انتظار» وأهداه لروح فقيدته الراحلة.

***

الفهرس

ملاحظة	3
إهداء	5
الفصل الأول: البدايات الجميلة	7
الفصل الثاني: وننتهي غرباء	33
ليلة الإعدام «أبريل»	35
محادثاتنا ومكالمتنا	43
لكنك يا لورين كنت عمياء القلب	47
قلب وعقل حيث معركة انتظار	51
النهايات مقابر الحب	54
الفصل الثالث: رسائل من سراب	61
الليلة الأولى بعد رحيلك	64
في اليوم الثاني لرحيلك	67
في الثاني عشر من نوفمبر	68
منتصف النهار من أحد الأيام	70
في ليلة الواحد والثلاثين ديسمبر	71
إلى الفاتح من جانفي	71
ذات انتظار	72
في الليلة التي توفي فيها جدي	73
رحمة الله عليه	73
منتصف الليل من إحدى الليالي:	75
ذات نسيان	77

في الذكرى الأولى لرحيلك 78
ذات حلم 80
بعد مرور مئة خيبة على رحيلك 82
المشهد الأخير «يناير» 84